أحداث ومشاهير عالمية



جواهر لال نهرو

الدكتور علي شعيب

دار الفكر اللبناني

جواہر لال نہرو

أحداث ومشاهير عالمية

جواهر لال نهرو

الدكتور علي شعيب

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني
للطباعة والنشر

كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٢

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٣٧ - ٨٣٧٦٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

مقدمة

البندت جواهر لال نهرو ، اسم داوٍ ، بين الأسماء اللامعة ، التي رفعت راية النضال في سبيل تحرير شبه القارة الهندية واستقلالها ووحدتها .

عاد إلى بلاده ، بعد أن أنهى دراساته الجامعية العالية ، في بريطانيا ، ليحمل علم الكفاح ، مطالباً باستقلال بلاده وحريتها إلى جانب المهاتما غاندي . في طريق النضال الشاق لم يهن نهرو ولم يضعف ولم تؤثر في صلابته المغريات ، ولا في إصراره النذر والتهديدات . وتحدى السجن والإعتقال ووقف كالصخرة الكأدأ ، يجمع حوله أبناء شعبه ، فيلهبهم حماسة بخطبه النارية ، ومقالاته الملتهبة ، وينظم صفوفهم في حزب المؤتمر ، ويحارب الأقطاع ، والخلافات القبلية ، ويجعل من شعوب شبه القارة الهندية شعباً واحداً ، تسيطر عليه ، رغبة عارمة وهي الحرية . . .

ونجح بعد جهد ، وفازت الهند باستقلالها بعد كفاح طويل وترك على عاتقه مهمة إكمال المسيرة بعد اغتيال الزعيم غاندي وذلك بعد الإستقلال بأشهر .

وانتقل من مرحلة الكفاح السياسي إلى مرحلة الجهاد الإقتصادي ، فأخذ يعمل ، بكل ما أوتي من جهد وقوة ، للنهوض ببلاده ، في عالم الإقتصاد ، ليضمن تحررها الإقتصادي من الإستعمار الذي كافحه . وأعدَّ لها المشاريع الإنشائية لتطويرها ، وإعمارها واحداً بعد آخر ، داعياً شعبه الذي التف حوله إلى بذل التضحيات في هذه المعركة التي لا تقل أهمية وشأناً عن المعركة السياسية التي حقق النصر فيها .

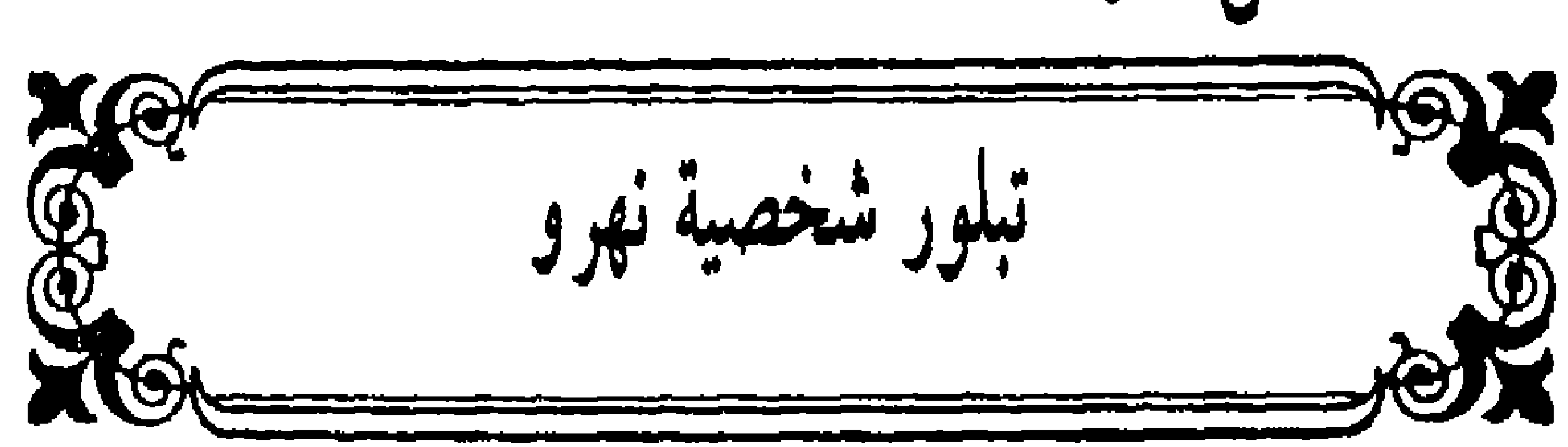
والتفت نهرو إلى الدول التي تناضل شعوبها للخلاص من الإستعمار الغربي ، فعمل على نصرة كل نضال ، وتأييد كل كفاح في قارتي أفريقيا وآسيا .

طرح فكرة عدم الإنحياز وعمل على تحقيقها مع عبد الناصر وتيتو . فكان انعقاد مؤتمر باندونغ الذي دعا بقوة وصلابة إلى السلام العالمي ، ووضع حد للحرب الباردة والتسابق العنيف في التسلح النووي ، بين كتلتي الشرق والغرب .

وكنا جميعاً (في الوطن العربي) نرقب جهوده ، ونتابع كفاحه ، بعين الإعجاب الذي لا يشوبه شيء . وازداد تمسك العالم العربي بشخصه نظراً لمساندته المطلقة لكفاح العرب ضد الإستعمار والإستيطان الصهيوني في فلسطين .

وهذا البحث الذي نضعه بين يدي القارىء اليوم ، صورة صافية تعكس حقيقة آراء القائد وأفكاره واتجاهاته ونضاله .

الفصـــل الأول



تبلور شخصية نهرو

ولـد بندت مـوتي لاَل نهرو(*) من عـائلة غنية . تلقى علومه في إنكلترا . في سن ٢٣ عاماً أصبح مناضلاً في الحركة الوطنية الهندية المناهضة للإستعمار البـريطاني . في مـطلع الإستقلال أصبح الزعيم السياسي الأكثر أهمية في بلاده بعد غاندي . دخل السجن تسع مرات . عام ١٩٣٥ اختاره غاندي لتزعم حزب المؤتمر والحكومة حيث بقي يشغلها لمدة سبعة عشر سنة . ولم تشهد الهند وحـدة أراضيها ووحـدة سلطتها الإدارية والسياسية منذ القـرن الثالث قبـل المسيح إلا تحت زعـامة نهـرو والذي أضحى الـوحيـد والأوحـد بعـد اغتيـال غاندي .

(*) كلمة بندت (الباء فارسية والدال سنسكـريتية) معنـاها في الأصـل «الحكيـم» أو «العـالم» وهي لا تطلق إلا على من كـان من فـرقـة البراهمة ، وكلمة موتي معناها الجوهر ، ولذا فإن نهرو يسمى أيضاً بندت جواهر لال نهرو ، ويكتب الهنود هذا الإسم كما هو في المتن أو كما كتبناه في الشرح ، وقد يكتبونه هكذا : جواهر لعل ، لأن لال هي تخفيف كلمة لعل التي معناها الحجر الكريم أيضاً .

كان البندت نهرو الوحيد لأبيه الموتلال نهرو . ولد في ١٤ تشرين الثاني عام ١٨٨٩ في مدينة الله آباد في الهند . بعد سنتين من الدراسة في Harrow تابع تلقي دراسته في العلوم الطبيعية في جامعة كامبردج والحقوق في لندن . عاد إلى الهند عام ١٩١٢ . في تلك السنة حضر لأول مرة دورة المؤتمر الوطني الهندي . بعد أربع سنوات تعرف إلى غاندي في دورة المؤتمر الذي عقد في Luckonw . وفي العام نفسه تزوج من كمالا كول Kamala Kaul وأنجب ابنته الوحيدة ، (أنديرا) عام ١٩١٧ ، والتي ستتبوأ رئاسة وزراء الهند بعد وفاة والدها .

عام ١٩٢١ دخل نهرو السجن لأنه رفض الخضوع لتوجهات الحكومة ، المؤيدة للإنكليز ، التي اعتبرها غير عادلة . بعد خمس سنوات رجع إلى أوروبا حيث أقام فيها حتى العام ١٩٢٧ كممثل للمؤتمر الوطني الهندي . في شباط حضر مؤتمر الوطنيين المضطهدين في بروكسل (بلجيكا) . خلال إقامته في أوروبا التقى نهرو Romain Rollan(*) والشاعر المسرحي الألماني Ernest Toller . كما تعرف إلى

(*) رومان رولان : (١٨٦٦ - ١٩٤٤) . كان موسيقاراً يطمح بأن يلعب دور بيتهوفن وبرليون . كما كان أستاذ كرسي في التاريخ . وضع أطروحة دكتوراه في التاريخ تحت عنوان « تاريخ الأوبرا في فرنسا قبل Lullyet Scarlatti . درس تاريخ الفن في دار المعلمين ودرس تاريخ الموسيقى في السوربون .

مدام Sun Yat-Sun(*) في مؤتمر بروكسل ، ثم أصبح نهرو عضو الرابطة المناهضة للإمبريالية التي نشأت في أعقاب مؤتمر بروكسل . لكن استبعد من الرابطة بعد قبوله بالاتفاق الذي وقعه غاندي مع نائب ملك الهند عام ١٩٣١ والذي يتعهد فيه غاندي بوقف حركة العصيان المدني وأن يشترك في مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن بشأن استقلال الهند ، وقبل نائب الملك ببعض شروط غاندي الدستورية وأجابه أيضاً إلى طلبه بإطلاق سراح المسجونين السياسيين . بعد ذلك زار البندت نهرو موسكو بدعوة من السلطات السوفياتية لحضور الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر الإشتراكية .

☜ في عام ١٩٢٨ شكلت الحكومة البريطانية لجنة للنظر في إصلاح الدستور الهندي لكن حزب المؤتمر قاطع هذه اللجنة لأنها مؤلفة من أعضاء إنكليز فقط وعهد الحزب إلى لجنة برئاسة نهرو لوضع مسودة دستور للهند ، وقد عرفت هذه المسودة باسم تقرير نهرو ونصت على المطالبة بحكومة دومنيون . أما زعيم المسلمين محمد علي جناح فقد قدم أربع عشرة مادة تحفظية على هذا الدستور بحفظ حقوق المسلمين . من هذه المواد :

المادة ١١ ـ مراعاة حقوق المسلمين في سائر الإمارات

(*) سن يات سن : (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥) كانت لها ثقافة سياسية واجتماعية غربية . أصبحت رئيسة الحزب الثوري الوطني الجمهوري الذي عمل بنشاط لإسقاط الأمبراطورية في الصين .

المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة في سائر الحقوق والوظائف .

المادة ١٢ ـ أن يضمن الدستور الهندي الجديد الحرية التامة للمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية في التعليم والتبليغ واللغة في سائر المقاطعات والولايات المستقلة وأن تخصص كل إيالة منحة مالية تصرف سنوياً على الشؤون الإسلامية .

المادة ١٣ ـ لا تؤلف وزارة من الوزارات أو حكومة من الحكومات في المقاطعات الهندية ما لم يمثل فيها المسلمون بنسبة الثلث .

وقد أقر المؤتمر الهندي المعقود في كلكتا عام ١٩٢٨ تقرير نهرو الذي أوصى بدستور شبيه بدستور الدومنيون (رابطة الشعوب البريطانية) . وكان ذلك الإقرار بصورة مبدئية ، وأعطى المؤتمر الحكومة البريطانية مهلة عام واحد للموافقة عليه . فإذا رفضت فإن المؤتمر سيعلن الإستقلال وهذا يعني أن المؤتمر والبلاد كانا يسيران نحو الأزمة . في أواخر عام ١٩٢٩ حاولت الحكومة البريطانية تلافي النتائج الخطيرة التي كانت تلوح في الأفق فأصدرت تصريحاً غامضاً حول إصلاح الأوضاع ، بالرغم من ذلك فإن المؤتمر أبدى استعداده للتعاون بشروط معينة ، فلما رفضت الحكومة هذه الشروط انعقد المؤتمر الوطني في دوره ، في مدينة لاهور ،

برئاسة نهرو واتخذ توصية بالمطالبة بالاستقلال والكفاح في سبيله .

كان البندت نهرو الوحيد بين زعماء المؤتمر الذي اتخذ موقفاً صريحاً ضد النظام الفاشي في روما والنظام النازي في برلين . عملياً رفض الدعوة الرسمية التي وجهتها له حكومة موسوليني عام ١٩٣٦ . كما رفض دعوة الحكومة النازية عام ١٩٣٨ . بالمقابل لبى دعوة حكومة الجبهة الشعبية في إسبانيا ، في نفس العام ، والتي كانت تحارب تمرد فرانكو المدعوم من موسوليني وهتلر . في العام التالي زار نهرو دولة الصين لإعلان تضامنه مع الشعب الصيني في كفاحه ضد الغزو الياباني الإمبريالي .

خلال الحرب العالمية الثانية اعتقل نهرو مع قيادات من حزبه بسبب إصرارهم على استقلال بلادهم . بعد إعلان استقلال الهند عام ١٩٤٧ اعتبر نهرو أحد كبار قادة العالم في هذا العصر . له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة والوطنية . أشهر ما ترجم له إلى اللغة العربية كتابه « لمحات من تاريخ العالم » . لم يقصد نهرو من كتابه شرح تاريخ مفصل للعالم ، وإنما قصد إعطاء القارىء لمحات من هذا التاريخ . والكتاب مجموعة لرسائل كان يبعثها نهرو لابنته أنديرا بينما كان يتنقل من سجن إلى سجن في الفترة الواقعة بين تشرين الأول ١٩٣٠ وآب ١٩٣٣ . ولم يكتف نهرو باختيار الحوادث التاريخية (التي يدرسها الطلاب في المدارس عامة) بل تطرق إلى ذكر

الأسباب التي تكمن وراء هذه الأحداث بأسلوب قصصي ممتع . لقد ترجم الصحفي أحمد بهاء الدين بعض فصول من هذا الكتاب ونشرها في كتاب أسماه « الثورات الكبرى » .

أما نهرو فيقول في مقدمة كتابه عن هذه الرسائل « أعترف أن الأسلوب الذي عالجت به المواضيع لم يكن بالأسلوب المثالي الذي يتوخاه المؤرخون . ولا أدعي أنني مؤرخ ، ومن الصعب أن يوفق المرء بين كتابة التاريخ والكتابة إلى الصغار عن أمور تتعلق بحياة الكبار وآرائهم . وكثيراً ما كررت بعض الأمور . ولا شك أن في الرسائل أخطاء لا يحصيها عد ، فهي صور سطحية وصل بينها خيطٍ واهٍ دقيق . بيد أني اقتبست الآراء والوقائع من كتب ورسائل متفرقة ، ولربما انسلت إليها أخطاء عديدة وكان بودي لو راجع هذه الرسائل مؤرخ ضليع ، غير أن المدة القصيرة التي قضيتها خارج السجن لم تسمح لي باتخاذ الترتيبات اللازمة ، وكثيراً ما عبّرت عن آرائي في هذه الرسائل بصورة تهجمية ، ومع أنني لا أزال متمسكاً بهذه الآراء ، إلا أن نظرتي إلى التاريخ قد تطورت شيئاً فشيئاً أثناء انتهائي من الكتابة . ولو شئت اليوم أن أعيد الكرة لكتبتها بصورة مختلفة ولقطعت الأمور على نحو آخر . على أنني لا أستطيع أن أمزق ما كتبت لأبدأ مرة ثانية من جديد » .

في مكان آخر يقول نهرو لابنته أنديرا « لا أستطيع أن أكتب إليك التاريخ الذي اختاره ، فعليك أن تراجعي الكتب

الأخرى من أجل ذلك . ولكنني سأكتب إليك بين آن وآخر شيئاً عن الماضي وعن الناس الذين عاشوا فيه والذين لعبوا الأدوار الكبيرة على مسرح العالم » .

في رسائله يشدد نهرو على التاريخ . ويعتبر دراسة هذه المادة من الضروريات لكل إنسان لأن « العبرة من التاريخ » . كان هذا عنوان إحدى رسائله إلى ابنته أنديرا من السجن ، وقد كتبها في كانون الثاني ١٩٣١ وجاء فيها :

« ماذا أكتب إليك يا عزيزتي ، وأين أبدأ ؟

كلما فكرت بالماضي تزاحمت في مخيلتي صور عديدة من الماضي ، بعضها يبقى أكثر من الآخر . هذه هي الأمور المحببة لدي والتي تدخل السرور إلى نفسي وتجعلني - بصورة لا شعورية - أقارن بين حوادث الماضي وحوادث هذه الأيام محاولاً أن أستخلص منها عبرة لهدايتي . ولكن ما أعقد عقل الإنسان ! إنه مليء بالأفكار المتناثرة والصور المتباينة كأنه متحف للصور لم ترتب فيه الصور بطريقة منظمة . ولا أشك أن أغلبنا يستطيع أن يرتب هذه الحوادث في مخيلته بصورة أفضل ، وإن كانت الحوادث التاريخية نفسها في بعض الأحيان غريبة ويصعب وضعها في نظام معين .

أظن أنني كنت قد كتبت إليكِ أن دراسة التاريخ لا بد وأن تعلمنا أن العالم قد تقدم ببطء ، وأن الحيوانات البسيطة البدائية استبدلت بغيرها من الحيوانات الأكثر تعقيداً وتطوراً ، إلى أن جاء أخيراً سيد الحيوانات ، الإنسان الذي استطاع بقوة

ذهنه أن يسيطر على جميع الحيوانات الأخرى .

المفروض أن تطور الإنسان من الحالة البربرية إلى المدنية هي قصة التاريخ . وقد حاولت في بعض رسائلي أن أبين لكِ كيف أن فكرة التعاون والعمل معاً قد تطورت وكيف أن المَثل الأعلى يجب أن يكون العمل معاً من أجل الصالح العام . لكن عندما تنظر أحياناً إلى نتف من التاريخ يصعب علينا أن نعتقد أن هذا المثل الأعلى قد تطور كثيراً أو أننا متمدنون أو متقدمون كثيراً . إن الحاجة الماسة اليوم إلى التعاون بدلاً من أن تستبد الأنانية ببلد وشعب وتحمله على الاعتداء على الغير أو أن تجعل إنساناً يستغل إنساناً آخر . فإذا كنا بعد ملايين من السنين من التطور لا نزال متأخرين وناقصين ، فكم نحتاج من الزمن حتى نتعلم كيف نعيش أناساً عاقلين معقولين ؟ .

إننا نقرأ أحياناً عن فترات غابرة من التاريخ كانت أفضل من زماننا وأكثر منه مدنية وثقافة ، مما يجعلنا في حيرة ما إذا كان عالمنا هذا يسير إلى الأمام أم إلى الوراء . ولا شك أن بلدنا قد عاش فترة مجيدة في ماضيه قد تفضل ما نحن الآن بمراحل عديدة .

إنها الحقيقة واقعة أنه قد مرت فترات مجيدة من الماضي في بلدان عديدة كالهند ومصر والصين واليونان وغيرها ، وأن هذه البلدان قد جمدت وتوقفت عن التقدم أو تقهقرت . ولكن هذا لا يثبط عزمنا لأن العالم جرم واسع وقيام

البلد الواحد أو سقوطه فترة من الزمن لا يؤثر على العالم كمجموعه .

إن كثيرين من الناس يلذ لهم اليوم أن يفخروا بمدنيتنا الكبيرة وعجائب العلم الحديث . ولا ينكر أن العلم قد حقق العجائب وأن الراسخين في العلم يستحقون كل احترام . ولكننا نلاحظ أن العظماء أنفسهم لا يلجأون إلى الإفتخار والمباهاة . ومن الجدير أن نتذكر أن الإنسان لم يتطور بعد كثيراً عن الحيوان في مجالات عديدة . وربما كان الحيوان أفضل من الإنسان في نواحٍ كثيرة . وربما كان كلامي سخيفاً عند البعض ولربما أضحك أُصحاب العقول الصغيرة ، ولكنك قد قرأتِ مؤخراً كتاب مترلينك عن النحلة والنمل الأبيض ، ولا بد أنكِ قد أعجبتِ بالنظام الإجتماعي الذي يسود بين هذه الحشرات . إننا نحتقر الحشرات لأنها أدنى الأحياء ولكننا ننسى أن هذه الأحياء قد تعلمت فن التعاون والتضحية في سبيل الصالح العام أكثر بكثير مما تعلمه الإنسان . ومنذ أن قرأت عن النملة البيضاء وتضحياتها في سبيل صاحباتها كرستُ لها مكاناً خاصاً في قلبي . وإذا كان التعاون المتبادل والتضحية هما المدنية فيمكننا القول أن النملة البيضاء والنمل عموماً أكثر تقدماً في هذا المضمار من الإنسان .

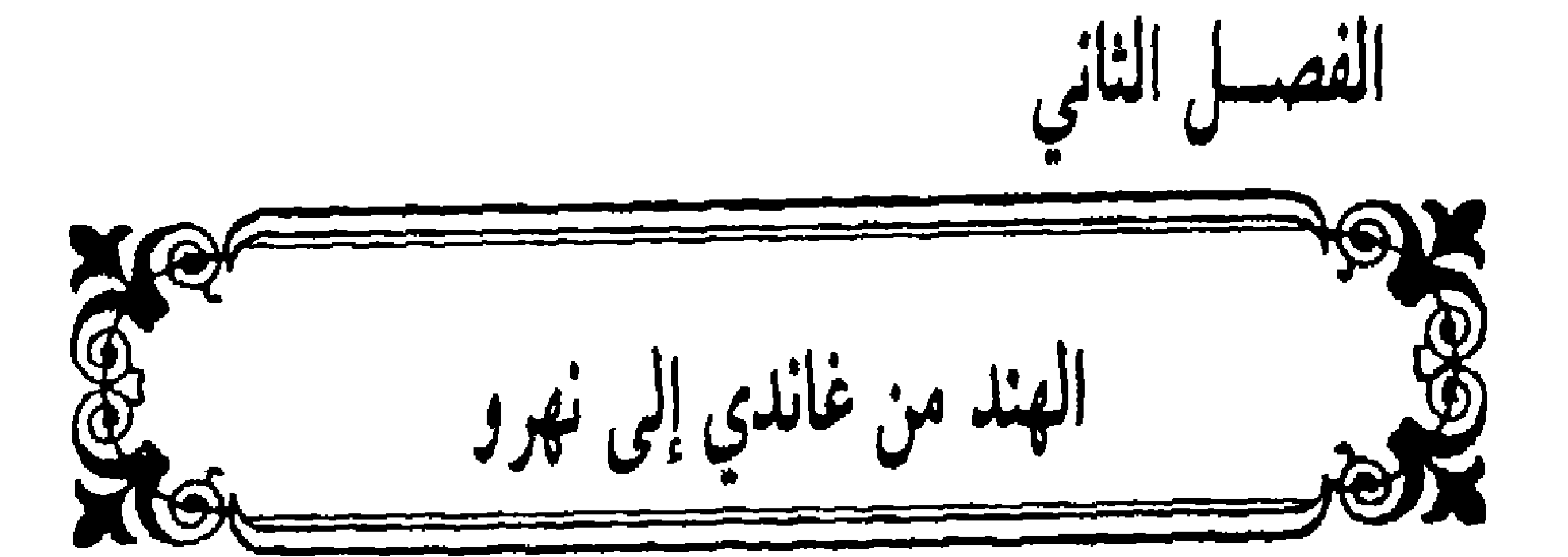
إن في أحد كتبنا السنسكريتية حكمة يمكن ترجمتها بما يلي :

« ضع الفرد في سبيل العائلة ، والعائلة في سبيل

المجتمع ، والمجتمع في سبيل الوطن ، والروح في سبيل العالم بأسره » أما ما هي الروح ؟ فإن القليل منا من يستطيع أن يعلم عنها الكثير . ولكن كل واحد يمكنه أن يعبر عنها بطريقة تختلف عن طريقة غيره . والدرس الذي تتعلمه من هذه الحكمة السنسكريتية هو نفس التعاون والتضحية في سبيل المجموعة الكبرى . وقد نسينا نحن أهل الهند ، هذا النهج المستقيم المؤدي إلى العظمة الحقيقية ، فهوينا وضللنا سواء السبيل ؟ ولكن ما زال بنا قبس منه لتهتدي به هذه الأمة . فها هم الرجال والنساء والأولاد والبنات يسيرون إلى الأمام في خدمة الهند مبتسمين وغير عابئين بالألم والشقاء . هنيئاً لهم ابتسامهم وحبورهم ونشوتهم في خدمة قضيتهم الجليلة وتقدمهم للتضحية في سبيلها .

إننا نحاول اليوم تحرير الهند ، وهو عمل مجيد ، ولكن الأمجد منه خدمة الإنسانية ذاتها ، لأننا نشعر أن جهادنا جزء من جهاد الإنسان الأكبر لوضع حد للظلم والشقاء . ويسرنا أن نعلم أننا نؤدي قسطنا الضئيل لمساعدة العالم بأسره على التقدم . إنكِ الآن في أنان باوند ، وأمكِ في سجن ملكا ، وأنا في سجن نيني . إننا نشعر بالوحدة ، ولكن علينا أن نفكر بيوم لقاءنا الذي أتطلع إليه بشوق . إن مجرد التفكير بذلك اليوم ينير فؤادي ويملأه بالأمل والنشوة » .

الفصـــل الثاني



الهند من غاندي إلى نهرو

في العام ١٩٣٤ أعلن المهاتما غاندي اعتزاله السياسة وانسحابه رسمياً من حزب المؤتمر ، واقتصرت زعامته فيه بعد ذلك على التوجيه غير المباشر .

وكان الزعيم الهندي الكبير قد ناهز الخامسة والستين من عمره . ويمكن القول أن دوره السياسي قد انتهى منـذ ذلك الحين ، وأصبـح الدور الـذي يقوم بـه في الهند ، دور أب حادب شفيق . وإذا كان لـدور الأبوة معنى الجـلال والحنان والحب العميق ، فإن له أيضاً معنى الشيخوخة والتخلف عن سير الزمان وموكب الجيل الصاعد الجديد .

وفي الحكايات الشعبية الهندية ، حكاية شائعة تروي أن حاكماً مستبداً قال لكبيـر وزرائه : « لا تغييـر بعد اليـوم في أرضي ، ويجب أن يظل كل شيء كما هو الآن » . فأجابـه وزيره : « ذلك أمر غير مستطاع يا مولاي ، وإلا ظل الأطفال أطفالاً ، والشيوخ شيوخاً ، والمرضى مرضى ، والجنود قعوداً في ثكناتهم ، والحبوب فجة ، والضرائب غير مدفوعة ! » . وكان الحاكم يصغي إليـه بغير اكتـراث ، فلما سمـع حجته

الأخيرة ، حجة الضرائب التي تبقى غير مدفوعة ، استوى في مجلسه وقال باهتمام : « كفى ، فقد أنسيت هذا الأمر الأخير ، ألا فحدثني يا وزيري عن هذه التغيرات كلها ما علتها ؟ » فأجاب الوزير : « مولاي ! إن الزمان يتغير . . . فوجب أن يتغير معه كل شيء ؟ » .

أجل لقد تغير الزمان فوجب أن يتغير غاندي زعيم الهند !

من الممكن أن يبقى هذا الزعيم في مقامه العظيم ، ومن الممكن أن يفيد وطنه بإرشاده ونصحه ، ومن الممكن أن يؤدي له في بعض الأحيان أعظم الخدمات ويؤدي أكبر المهمات . . . ولكن لم يعد ممكناً أن تسير الحركة الوطنية سيرها الطبيعي وليس لها من هادٍ أو موجه ، غير أن هذا الرجل الذي هو أقرب لأن يكون قديساً أو نبياً عن أن يكون قائداً سياسياً محنكاً يستطيع التكيف بالظروف التي تلابسه ، ووضع الخطط والأهداف لحاجة البلاد والمنسجمة مع روح العصر .

لقد كانت الحركة الوطنية قبل ظهور المهاتما غاندي مرتجلة غامضة ، يقتصر همها على بعث الماضي السحيق والتغني بأمجاد الهند المغرقة في القدم . ولم تكن هذه الحركة لتستطيع جمع الهنود كلهم حول هدف واحد واضح الخطوط والمعالم ، بل كانت خليقة بأن تثير التفرقة في الصفوف الوطنية ، لأن الأمجاد التي تتغنى بها كانت خاصة بقومية دون أخرى أو بمذهب دون آخر .

كان ظهور غاندي على رأس الحركة الهندية خطوة تقدمية جديدة ، لأنه استطاع تغيير ذلك الجو برفق ، دون إخماد الحماسة التي أثارها أسلافه في بعض القوميات الهندية ، ونقل اهتمام الأمة من الماضي السحيق ، إلى فاجعة البؤس اليومية ، معلناً مواطنيه أن الإستعمار هو السبب الأول في دوام هذا البؤس وفي استفحاله يوماً بعد يوم . ولا يعني هذا أن حب غاندي لماضي بلاده كان أقل من حب أسلافه من الزعماء ، ولكن حبه لم يكن حب شاب خيالي متحمس بل حب رجل حكيم محضته الأيام وعياً وخبرة وتجربة .

وقد أقام غاندي لأول مرة أيضاً ، الصلة المباشرة بين المؤتمر الذي يتزعم الحركة الوطنية ، وجماهير الشعب الهندي . وأدخل في البرامج الوطنية ، المطالب الإقتصادية ، فدعا إلى تعميم الغزل ومقاطعة البضائع الإنكليزية ، وأعلن العصيان المدني لإلغاء احتكار الملح وغير ذلك من المطالب الإقتصادية . ولقن مريديه ، وأبناء الهند عامة ، الشجاعة العارمة التي لا تخش الإضطهاد ولا يثنيها خوف الموت عن التمسك بما تريد . وترك أثراً كبيراً في الحياة السياسية والإجتماعية ، بأقواله وسلوكه الشخصي . وكان أول قائد هندي درس مشاكل الشعب الحقيقية ، وعرف حاجاته ووجه النظر إليها ، وجعل هذه المشاكل والحاجات ، على قدر معرفته وفهمه ، أساساً للنضال الوطني .

لقد صنع غاندي هذا كله ، ولم يعد في وسعه أن يصنع أكثر منه ، بل ليس في وسع إنسان آخر أن يصنع أكثر منه في

هذه المرحلة من حياة بلاده . وظل واقفاً في وجه الحكومة الإنكليزية وقفة الزعيم المطاع ، حتى تطورت الحركة الوطنية وتفرقت طوائف في مبدأ الملاينة والحلم والسلب والإيجاب ! حينئذٍ أصبحت الهند في حاجة إلى الفكر المنظم القائم على الإدراك العلمي لأنظمة المجتمع ومشاكل العصر وإلى القائد الذي يبني نظرياته وأعماله على الواقع الملموس والحقيقة الحية ، لا على القيم المطلقة التي تروع وتعجب ولكنها لا تكون إلا مجرد أخيلة وأحلام لها من واقع الحياة أساس راسخ متين .

إن غاندي قد أيقظ الهند ، وجعلها تنظر إلى أهداف قومية واجتماعية وإنسانية عظيمة . ذلك هو دور غاندي ، وهو دور عظيم جداً ورائع جداً ، ولكنه لا يكفي أمة تنشد الإستقلال والحرية والعزة إلا لمرحلة معينة من مراحل الجهاد والنهوض . . . وقد اجتازت الهند تلك المرحلة فسبقت قائدها . . لقد تفجرت أمواج ثورتها ، وعبثاً يضع لها منشئها سدوداً ، لأن الثورة إذا تفجرت طغت وجرفت كل شيء يعترض طريقها .

وقد وجدت الهند القائد الجديد الذي تحتاج إليه في مرحلتها الجديدة ، في شخص جواهر لال نهرو ، الذي يضارع غاندي بوطنيته وصلابته وإخلاصه ، ولكنه يختلف عنه في آرائه الإجتماعية وأساليب الكفاح .

وأن حياة هذا القائد الذي جسد حاجات الأمة في

مرحلتها الجديدة ، كما جسد غاندي حاجاتها في المرحلة السابقة ، لا تقل في خصبها وغرابتها وعبرها عن حياة المهاتما غاندي ، وإن اختلفت عنها بخصائصها ومميزاتها اختلافاً كبيراً . فقد ولد في أسرة كبيرة ذات ثروة باذخة تروي عنها الأساطير ، وكان أبوه موتيلال نهرو أشهر المحامين الهنود في عصره وساعد غاندي الأيمن ، ثم لم يلبث أن تخلى وابنه جواهر لال نهرو عن ثروتهما كلها للمؤتمر الهندي ، فأديا بذلك خدمة كبيرة للحركة الوطنية .

لكن هذه الخدمة كانت أقل خدمات جواهر لال نهرو فإنه ما كاد ينهي دراسة الحقوق في جامعة كامبردج حتى عاد إلى الهند بروح ثورية وثابة فانتظم في صفوف الحركة الوطنية ، وخاض معاركها بجرأة وبسالة كبيرتين ، فأفادت كثيراً من حيويته ووعيه وتوجيهه ، ولاقى هو في سبيل ذلك العبء الثقيل ، وسجن ثماني مرات فبلغ مجموع ما قضاه في السجن عشر سنوات .

وكما ذكرنا تلاقى غاندي ونهرو للمرة الأولى سنة ١٩١٦ في اجتماع للمؤتمر عقد في لوكنوف ، فنشأت بينهما منذ ذلك الحين صلة وثقى من الحب والإعجاب المتبادلين . ولكن ذلك لم يمنع نهرو من انتهاج طريق غير الطريق التي يسلكها المهاتما غاندي . فقد عرف الزعيم الجديد أن خصم بلاده ليس الشعب الإنكليزي بل الطبقة الرأسمالية الحاكمة في إنكلترا ، التي تستثمر شعب بلادها مثلما تستثمر الشعوب

الخاضعة لنيرها ورأى أن البؤس الذي يعانيه الشعب الهندي والمجاعات والأوبئة التي تفتك به إنما ترجع إلى النظام الإقطاعي الذي يعيش في ظله والذي يتحالف مع الإستعمار الأجنبي على إبقاء الهند فريسة الجهل والفقر والتأخر . فآمن بالمباديء الإشتراكية وأخذ يصرح بأن هذه المباديء هي الجديرة بإنقاذ الشعب الهندي من الإستعمار الخارجي والاستثمار الداخلي .

لقد استمر يقول إن مشاكل الهند الحقة ، كمشاكل العالم أجمع ، هي في خلاصتها مشاكل إقتصادية ، وهذه المشاكل هي من الترابط بحيث يصعب أن يحل كل منها حلاً منفصلاً . في مناسبة أخرى ، وعلى أيام نهرو كان عدد سكان الهند ٣٦٠ مليوناً ، قال الزعيم الهندي : « في الهند ٣٦٠ مليون مشكلة لأن كل هندي مشكلة في حد ذاته » .

من جهة أخرى رأى نهرو أن مسألة الهند الأساسية هي مشكلة الأرض ، ومن الصعب أن يرى المرء حلاً لها لا يتضمن تغييرات ثورية في النظام الزراعي ونظام التوزيع . فمخلفات العهد الإقطاعي ، وبقاء الأرض في أيدي فئة قليلة من كبار الملاك ، عقبات تعوق التقدم ، يجب القضاء عليها . وتوزيع الأراضي على عدد كبير من صغار الملاك ، لا يملك كل منهم أكثر من فدان ، هو أيضاً أسلوب غير إقتصادي ، مضيع للجهود ، ولا يسمح باستعمال الوسائل العلمية الحديثة في الزراعة ، والواجب أن تحل مكان ذلك مزارع كبيرة

مشتركة أو مزارع تعاونية . ولا يتيسر هذا إلا بتغيير جوهري في النظام الإقتصادي الحاضر . ولكن هـذا كله لا يحل مشكلة العاطلين في الأرياف حلاً نهائياً . ولهذا ، ولأسباب أخرى واضحة ، يجب أن تسير الهند في النهضة الصناعية خطوات كبيرة مطردة .

ومن ثم لم يقتصر كفاح نهرو على طلب الإستقلال ، بل كان يقرن إلى كفاحه الوطني ، الكفاح الإقتصادي في سبيل رخاء الشعب والنهوض به إلى المستوى المادي والفكري الخليق بالإنسان ، لاعتقاده بأن حرية شعب من الشعوب ، هي في ذاتها خير مطلق ، ولكن هذه الحرية ليست ، عند التحليل ، أكثر من وسيلة لغاية معينة ، هي الإرتفاع بهذا الشعب إلى درجات أسمى ، والتقدم من ثم بموكب الإنسانية مراحل جديدة إلى الأمام .

ولم يكن جواهر لال نهرو أول إشتراكي في الهند ، ولكنه كان أول إشتراكي هندي مثل دوراً هاماً في قلب المؤتمر . غير أنه لم يحاول شق هذا المؤتمر ، أو الإنفصال عنه ، لاعتقاده بأن غاندي ما دام على قيد الحياة ، فإن الهند لا تستطيع أن تصنع شيئاً بدونه ، وهي تستطيع أن تصنع أشياء كثيرة بهديه وتوجيهه .

إلا أن أساليب الكفاح التي اتبعها كل من الزعيمين الكبيرين ، كانت على طرفي نقيض . لقد كان كل منهما يكره الإستعمار والرأسمالية ، ويسعى إلى تحرير الهند والشعب

الهندي ، ولكن غاندي يؤمن بالتطور الإجتماعي البطيء ، ويكره القيام بأعمال العنف ، ويتمنى أن يكف المستعمرون والمستثمرون عن مظالمهم من تلقاء أنفسهم ، بإيقاظ ضمائرهم ، وإقناعهم بأغلاطهم ، ومقاومتهم مقاومة سلبية مهما اشتدت فهي لا تعدو حد العصيان . أما نهرو فهو يؤمن بالثورة ، ويعتقد أن المستعمرين والمستثمرين لا يكفون عن مظالمهم إلّا مكرهين ، وأن الهند لا تستطيع الوصول إلى أمانيها إلا بالعمل الإيجابي والنضال الجماهيري وبينما يعتمد غاندي في الدرجة الأولى على جماهير الفلاحين الذين يتأثرون بالهالة الدينية التي تحيط بأقواله وأعماله ، يعتمد نهرو على جماهير العمال ، لأنهم أكثر وعياً ، وأقرب إلى الروح العلمية ، وأصلب في المراس والكفاح .

وكان غاندي يتهم نهرو بالتطرف ، ونهرو يتهم غاندي بالرجعية ، ولكن صداقتهما لا تفتر برغم ذلك ، وتعاونهما لا يضعف ، لإيمان كل منهما يصدق الآخر وإخلاصه لقضية البلاد ، وأثره في تقدمهما .

ولعل كلاً منهما كان يشعر بأنه لا غنى للحركة الوطنية عن زميله ، ويعتقد بأن في وسعه إقناعه ببعض وجهات نظره . والواقع أن وجهات النظر هذه كانت تتقارب مع الأيام ، حتى أن غاندي لم يلبث أن دعا نهرو وريثه الشرعي ، وجعله خليفة له عندما استقال رسمياً من رئاسة المؤتمر ، واكتفى بأن يكون مستشاراً للمؤتمر ومشرفاً على أعماله إشراف الأب على أعمال بنيه .

تجدر الملاحظة أنه عندما تولى نهرو زعامة حزب المؤتمر عام ١٩٣٥ اشترك في الإنتخابات التي جرت في تلك السنة ونال مرشحوه الأكثرية الساحقة في ثماني ولايات وفازت الرابطة الإسلامية في ثلاث ولايات ، مع أن قانون الإنتخابات اقتضى بأن شروط تمتع المسلم بحق الإنتخاب هي أن يكون ذا دخل يساوي ثلاثة آلاف روبية في السنة ، بينما اشترط أن يكون دخل الهندوسي ثلاثمائة ألف روبية في السنة . ويجب أن توضح هنا أن حزب المؤتمر لا يعترف بالنزعات الطائفية في جهاده من أجل الحرية التي ينشدها لجميع الهنود ، ويقضي نظامه بألا يقبل في صفوفه أحداً من المنتسبين إلى أية جمعية طائفية ، كجمعية المهاسابها الهندوسية مثلاً وجمعية الرابطة الإسلامية ، وهو يضم عدداً غير قليل من المسلمين منهم الزعيم أبو الكلام آزاد ، وقد نال هذا الحزب أصوات جميع المسلمين الذين ينظرون إلى قضية الهند من الناحية الوطنية لا من الناحية الدينية ، وانضمت إليه رابطة المسلمين الشيعيين التي تمثل ٢٠ في المائة من مسلمي الهند .

ويختلف نهرو عن جميع زعماء المؤتمر بنظره إلى القضية الوطنية في الهند ، كقضية لا تنفصل عن النضال العالمي في سبيل الحرية ، لإيمانه بأن جميع حركات التحرر ، في أي قطر كان ، تتلاقى على صعيد واحد ، وفي جبهة واحدة أمام عدو مشترك واحد ، هو الفاشية والإستعمار ، مظهراً الرأسمالية التي تبحث بصورة مستمرة عن بلاد تنتهب خيراتها وأسواق تستهلك بضائعها . وهو يوضح موقفه هذا

بقوله : « إننا نربط حركتنا الوطنية بالحركات الديمقراطية في العالم ، ولكننا نسير معها بصورة مستقلة ، وعلى نهج نستمده من مصلحتنا القومية كما نراها نحن . وعلى جميع الشعوب الطامحة لحرياتها ، أن تنهج نهجنا ، وأن تحذر الإنزلاق في مهاوي الدعاية الفاشية ، فإن هذه الحركة الرجعية خطر كبير على الأماني الوطنية والحريات الإجتماعية . وأن دعاتها يعملون في سبيل مطامعهم . وهم يريدون إستعمار الشعوب الضعيفة ، والإستعانة بهذه الشعوب نفسها ، لتحقيق هذه الغاية المجرمة » .

ومن ثم وقف المؤتمر الهندي بعد أن تولى نهرو رئاسته موقف المؤيد لكل حركة تحررية في العالم ، وناصر الجمهوريين في الحرب الأهلية في إسبانيا ضد الجنرال فرانكو كما أشرنا . وشجب العدوان الياباني على الصين ، وزار بنفسه الجبهة الإسبانية في سنة ١٩٣٨ والجبهة الصينية في عام ١٩٣٩ .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية تنحى نهرو ورجال حزب المؤتمر عن الحكم في جميع الولايات ، برغم عدائهم للفاشية ، لأن الحكومة الإنكليزية لم تستطلع رأيهم في إعلان الحرب ، ولم تعلن صراحة عن أغراضها منها ، ولم تفصح عما اعتزمته بشأن الهند ، ووجهت اللجنة المركزية لحزب المؤتمر ، تدعو الحكومة الإنكليزية لأن تعلن في صيغة واضحة ، الغاية من هذه الحرب بالنسبة للديمقراطية ، وللإستعمار ، ولنظام العالم بعد الحرب . وأن تعلن على

الأخص كيف تتحقق هذه الغاية بالنسبة للهند حاضراً ، وهل هي تتضمن القضاء على الإستعمار ، ومعاملة الهند كدولة حرة تسير في سياستها تبعاً لرغبات شعبها ؟ » فأجابت الحكومة الإنكليزية على ذلك بوعد بأن تمنح الهند بعد الحرب نظام الدومنيون ، ورفضت أن تجيب على السؤال الخاص بغايات الحرب ، ولكن المؤتمر لم يقتنع بهذا الجواب ووقف موقف المعارض في الحكومة ، فأعلن نائب الملك تعليق دستور سنة ١٩٣٥ واعتقل نهرو وعدد من زعماء المؤتمر ، وعاد الحكام الإنكليز والموالون لهم إلى الإضطلاع بإدارة البلاد .

وعلى أثر دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ، أفرجت الحكومة الإنكليزية عن نهرو . ولما اشتد الخطر على مواقع بريطانيا وأميركا في الشرق الأقصى ، أرسلت الحكومة الإنكليزية السير ستافورد كريبس لمفاوضة نهرو زعماء الهند ، معلناً عزم إنكلترا على فتح الهند نظام الدومينيون أو الحكم الذاتي الذي تتمتع به ممتلكات التاج البريطاني الحرة ، على أن تحتفظ كل ولاية بحقها في الإنفصال عن الإتحاد الهندي وطلب مثل هذا النظام لنفسها ، فرحب الأمراء بالعرض الإنكليزي ولكن نهرو انتقد مبدأ السماح للولايات بالإنفصال ، وأبى ألا يسند أمر الدفاع عن الهند إلى الهنود وحدهم ، كما اشترط على إنكلترا أن تتعهد بتطبيق نظام الدومينيون على الهند فور انتهاء الحرب وأن يبدأ حالاً في تطبيق هذا النظام جزئياً . وأعلنت الرابطة الإسلامية من جهتها رفضها أي نظام اتحادي ، مبدية رغبتها في إنشاء وحدة إسلامية باسم باكستان

من الـولايات التي تتـألف أكثريتهـا من المسلمين . فـأخفق مشروع كريبس واتسعت هـوة الخلاف بين المؤتمـر الهندي والرابطة الإسلامية .

كان انتصار الحلفاء على النازية والفاشيـة في الحرب العالمية الثانية يعتبر بمثابـة انتصار لقـوى الحريـة وحركـات التحرر الوطني في العالم .

وبينما كانت تتعاظم القوى الشعبية الحرة وتنشق أمامها السبل لبناء عالمها الحـر الجديـد ، كان ذلـك غير مـا أملته بريطانيا التي دخلت الحرب بوصفها أكبر دولة استعمارية غانمة لا يهمهـا شيء كما يهمهـا الإحتفاظ بـأمبراطـوريتها وطـرق مواصلاتها ، فإذا هي تجد نفسها أمام منافسة الولايات المتحدة التي انتزعت منها زعامة العالم الرأسمالي ، وأخذت تزاحمها في مستعمراتها وأسـواقها نفسهـا . وإذا قوى الحـرية تحـرز انتصاراً بعد آخر ، فيزول عبئها عن كثير من بلدان أوروبا ، ويضعف نفوذها في كل مكان . وإذا الحركة الوطنية تشتد في الهند ، كما اشتدت في كل قطر مضطهـد آخر ، وإذا نهـرو يعلن أن قوى الإستعمار التي زعمت بـأنها تقـاتل في سبيـل الديمقراطية ، أن لا معنى للديمقراطية إذا كان المتمتعون بها لا يزيدون على تسعة ملايين هولندي يطأون رقاب ٨٠ مليون أندونيسي ، و ٤٠ مليون فرنسي يتحكمون في أكثـر من ٦٥ مليـون مستعبد و ٥٠ مليـون إنكليزي يستبـدون بأقـدار نيف و ٥٠٠ مليون نسمة ، وفيمـا اشتدت الحـركات الـوطنية في

العالم ، واشتعل لهيبها في الشرق الأقصى ، ثارت الهند الصينية على الإستعمار الفرنسي ، وثارت أندونيسيا على هولندا ، وكادت شرارة الثورة تتطاير في الهند ، أرادت بريطانيا هذه المرة أن تستبق الحوادث فعمدت إلى مفاوضة زعماء الهند بقيادة نهرو من جديد للوصول معهم إلى حل للمسألة الهندية قبل أن ينفجر ضرام الثورة التي تجيش في صدور الهنود ، وقبل أن تضطر إلى بحث هذه المسألة في المنظمات الدولية ومؤتمرات الصلح . وخلال هذه المفاوضات برز مشروع تقسيم الهند وإنشاء باكستان .

موقف نهرو من إنشاء باكستان :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعلنت الحكومة الإنكليزية عزمها على إجراء إنتخابات جديدة لمجالس الولايات والمجلس التأسيسي ، وجرت هذه الإنتخابات في شتاء سنة ١٩٤٦ ، فخاضها حزب المؤتمر على أساس استقلال الهند ووحدتها ، وخاضتها الرابطة الإسلامية على أساس إنشاء باكستان . وتألفت حكومة انتقال برئاسة جواهر لال نهرو ، فقبلت الرابطة الإشتراك في الحكومة بعد تردد طويل ، ولكنها رفضت الإشتراك في المجلس التأسيسي الذي التأم لوضع دستور الهند على أنها دولة موحدة ، مصرة على المطالبة بإنشاء مجلس تأسيسي خاص بالدولة الإسلامية المقبلة . فتحرج الموقف ، وتعقد الأمر ، وقال محمد علي جناح : « لن يحل شيء إلا عندما يحل باكستان . ويجب أن تكون هناك هيئتان لوضع الدستور لا واحدة ، الأولى تضع دستور الهندوستان

وتقرره ، والثانية تضع وتقرر دستور باكستان . وأنا موقن بأننا نستطيع حل قضية الهند في عشر دقائق إذا أعلن المستر غاندي موافقته على الباكستان » .

ولكن غاندي ونهرو ومولانا أبو الكلام آزاد ، وغيرهم من زعماء حزب المؤتمر ، ظلوا يرفضون مشروع التقسيم قائلين : إن الهندوس والمسلمين إخوان تجمعهم الرابطة الهندية برباطها الوثيق ، وأن الإنكليز هم الذين يعملون على التفريق بينهم ليوطدوا نفوذهم في الهند ، ومتى ذهب المستعمر زالت البغضاء وحل الفريقان خلافاتهما ، غير أن الطروحات المضادة بين حزب المؤتمر والرابطة الإسلامية تعدت الطرح السياسي وبدأت المطالبة في المناطق الإسلامية تتخذ شكل ثورة وطار شررها من البنغال وأخذ يمتد حتى بهار والبنجاب فالحدود الشمالية . إزاء هذه الحالة اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى تغيير سياستها ، فسحبت ، سنة ١٩٤٧ ، نائب الملك الماريشال ويغل وعينت مكانه لورد مونتباتن لتنفيذ التقسيم بموجب تصريح يعرف باسم (برنامج ٣ يونيو) .

وعلى الرغم من أن مونتباتن جاء لتنفيذ التقسيم إلا أنه سار على هوى حزب المؤتمر وأراد أن يحاول محاولة جديدة لجعل الهند مستقلة وموحدة واقترح تقسيمها إلى ثلاث مناطق .

الأولى : البلاد التي أصبحت بعد ذلك تعرف بهندوستان .

الثانية : البلاد التي أصبحت بعد ذلك باكستان الغربية .

الثالثة : البلاد التي أصبحت بعد ذلك باكستان الشرقية .

على أن تكون هذه المناطق الثلاث تحت سلطة مركزية واحدة ، وحينما دخل الفريقان : المسلمون والهنادكة في تفصيلات هذا الإقتراح رفضه المسلمون لأنه لم يكن يضمن لهم شيئاً من الحرية بل يجعلهم أقلية في أكثرية هندوكية .

ويفشل هذه المحاولة أدرك مونتباتن أن لا سبيل إلى حل القضية الهندية إلا بالتقسيم لأن الزعماء المسلمين أفهموه بأنهم يقاتلون حتى الموت إذا ما أعطيت السلطة إلى أيدي الأكثرية الهندوكية وذلك لأن الفكرة الدينية عند الهنادكة أقوى من الفكرة القومية وإعطاؤهم السلطة معناه إعطاؤهم السيف ليعملوه في رقاب المسلمين .

عام ١٩٤٨ أعلن الإنكليز عن عزمهم الجلاء عن الهند في حزيران بعد أن يتم انتقال الحكم إلى يد الحكومة الشرعية .

لكن الرابطة الإسلامية أعلنت عن رفضها لجلاء الإنكليز قبل تحقيق الباكستان . فيما أعلن فريق من كبار قادة حزب المؤتمر أن الغاية من التقسيم فسح المجال للهندوس والمسلمين كي يقتل بعضهم بعضاً ثم يستنجدوا بالإنكليز . وصارح غاندي نائب الملك بهذا الرأي إذ قال له : « إنكم

تنسحبون محتقرين لتعودوا مكرمين » .

إلا أن نهرو قبل أخيراً بالتقسيم ، ما دام الإستقلال لن يتم بدونه ، مفضلاً الخطر الذي تتعرض له البلاد من جرائه ، على ما تتعرض له كل يوم من أهوال الإستعمار .

وصدق ظن غاندي إذ ما كاد التقسيم يعلن وتتألف الهندستان والباكستان حتى بدأ النزاع بين الدولتين ، يثيره عملاء الإستعمار من الهندوس والمسلمين .

سياسة نهرو لبقاء كشمير هندية :

عند استيلاء الإنكليز على الهند بقيت إمارات تحت سيطرة أمراء محليين ، وكانت هذه الإمارات تؤلف ثلث مساحة البلاد اتساعاً ، بيد أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا مستقلين بكل معنى الكلمة بل كانوا يتمتعون بشبه استقلال داخلي يتسع ويضيق بحسب أهمية الإمارة من حيث المركز وعدد السكان والمساحة ومكانة الأمير فلما قررت إنكلترا إعلان استقلال الهند دعا نائب الملك مونتباتن أمراء هذه الإمارات وطلب إليهم أن يتنازلوا عن سلطتهم وسلطانهم للدومينيون ، الذي هم في نطاق حدوده وحدد لهم تاريخ ١٥ آب من سنة ١٩٤٧ موعداً لهذا التنازل . فلم يسع هؤلاء الأمراء إلا أن يلبوا الطلب الذي هو أمر في حقيقته ، واندمجت كل هذه الإمارات كل منها في الدومينيون الذي هي داخل حدوده ، ولم يتيسر أمر دمج ثلاث إمارات هي جوناكده وحيدرآباد وكشمير .

كانت كشمير ذات أكثرية إسلامية لكن أميرها في ذلك

الوقت كان هندوكي ورئيس وزرائه الشيخ محمد عبد الله وهو عضـو في حزب المؤتمـر وصديق نهـرو . وهذا الأخيـر ذاته كشميري الأصل . إلى جانب ذلك كـانت كشمير تقـع على حدود كل من هنـدوستان وكشميـر على حد سـواء فهي إذن مخيرة بالإنضمام إلى إحدى الدولتين . وكان على أميرها أن يعلن رأيه قبل ١٥ آب المحدد لتقرير مصير جمع الإمارات . إلا أن هذا الأمير لم يفعل ذلك بل انتظر حتى ٢٦ تشرين الأول وأعلن انضمامه إلى هندوستان . وبـديهي ألا تقيل بـاكستان بهذا الأمر ، ولكنها لم تلجأ إلى الحرب بل لجأت إلى طلب إجراء استفتاء في البلاد فإن أبدي الكشميريون رغبتهم بالبقاء في هندوستان فلن تعارض باكستان بذلك وإلا ضمت إليها ، ولكن نهرو رفض هذا الطلب فرفعت باكستان القضية إلى هيئة الأمم المتحدة ولا زالت حتى اليوم لم تحل .

الفصـل الثالث

كيف حكمت بريطانيا الهند؟ (وجهة نظر نهرو)

في هذه الرسالة التي كتبها نهرو إلى ابنته أنديرا يتطرق إلى ممارسات الحكم البريطاني ، ويعرض الحدث بأسلوب بسيط حتى تفهمه ابنة الخامسة عشرة . يقول نهرو : « كتبت لك ثلاث رسائل عن الهند في القرن التاسع عشر . إنها قصة طويلة حزينة ، ولو أنني اختصرتها لزدتها تعقيداً وجعلتها صعبة الفهم . وربما كنت أهتم بهذه الفترة من تاريخ الهند أكثر من الفترات المماثلة في العالم ، ولكن هذا طبيعي فأنا هندي مهتم بالهند وأعرف عنها أكثر من غيرها . وبالإضافة إلى ذلك فتاريخ هذه الفترة ليس مجرد تاريخ قديم بالنسبة لنا بل هو الأساس الذي بنيت عليه الهند الحديثة في إعمارها أو دمارها . وهذه هي الطريقة السليمة التي تمكننا من خدمة الهند ومعرفة السبيل الذي نسير عليه لخدمتها .

وقد بقي عليَّ الكثير مما سأقصه عليكِ من تاريخ الهند . إنني أختار لكِ في كل رسالة وجهة معينة أو أكثر وأحدثكِ عنها على انفراد حتى أيسر فهمها لكِ ، ولكنكِ تدركين طبعاً أن جميع هذه الأعمال والتطورات التي ذكرتها وتلك التي سآتي على وصفها في هذه الرسالة وما بعدها ،

كانت إلى حدٍ كبير تجري جنباً إلى جنب وتتضافر معاً لخلف هذا القرن التاسع عشر .

وعندما تتطالعين أعمال الإنكليز ومساوءهم فكثيراً ما تتملكك النقمة على هذه السياسة التي ساروا عليها والشقاء الذي نجم عنها . ولكن من هو السبب فيما حدث ؟ أليس السبب شقائنا هو ضعفنا وجهلنا ؟ وإذا كان الإنكليز يستفيدون من تنازعنا فيما بيننا ، ألا نكون مذنبين لسماحنا بوجود هذا التنازع ؟ وإذا كان الإنكليز يتمكنون من تفريقنا وإضعافنا بهذه الفرقة مستغلين جشع طوائف متفرقة ، فإن سماحنا بهذا العمل هو في حد ذاته دليل على تفوق الإنكليز علينا . فإذا كان لا بد لكِ من السخط فليكن هذا السخط منصباً على الوهن والجهل والمنازعات الداخلية لأن عليها تبعة شقائنا .

نحن نهاجم طغيان الإنكليز ، ولكن طغيان من نعني ؟ من هو الذي يجني ثمرة هذا الطغيان ؟ ليس الشعب الإنكليزي هو المستفيد من شقائنا ، لأن الملايين منهم هم أنفسهم تعساء مذلولون . ولا شك أن ثمة فئة قليلة من الهنود استفادوا من استغلال البريطانيين للهند . فأين نضع الحد الفاصل إذن ؟ ليس الأمر يهم الأفراد فحسب بل يرجع إلى النظام القائم ذاته . فإننا نعيش تحت سيطرة آلة ضخمة جشعة تعصر وتسحق الملايين من الهنود هذه الآلة الهائلة هي « الإستعمار الجديد الذي ولده رأس المال الصناعي » .

إن أرباح هذا الإستعمار تذهب في الدرجة الأولى

لإنكلترا ، ولكن في إنكلترا نفسها يذهب الربح إلى طبقات خاصة لا إلى الشعب عـامة . ويبقى القليـل من الربـح في الهند ، ولكن لا يستفيد من هذا القليل في الهند إلا القليل ، ومن طبقة خاصة . وإذن فمن الحماقة أن نغضب على شعب بأسره . وإذا كان نـظام ما يلحق بنا الأذى فالواجب إزالة هذا النظام ، ولا يهمنا عند ذلك معرفة من هم الأشخاص أو الأفراد الذين يقومون على خدمته . ربما كان من خدامه رجال طيبو القلب ولكنهم لا يستطيعون قلبه وتغييره . فطيبة القلب مهما حسنت لا يمكنها أن تحول الحجارة إلى طعام ولو وضعتها مدة طويلة فوق النار . هذا هو رأيي ، ولكن هناك من يخـالفني فيه . وعليكِ ألا تقبلي الآراء جزافاً بل تختاري ما يروق لكِ بعد دراسة وفهم . ولكن الغالبية مقتنعة أن العيب متأصل في النظام الإستعماري ذاته ، ولا فائدة من السخط على الأفراد أنفسهم . وإذا شئنا تغييراً فلنغير النظام ذاته . وقد اتضح لنا عيب هذا النظام الإستعماري الرأسمالي في الهند ، وإذا التفتنا إلى الصين ومصر وجدنـا آلته الضخمـة تعصر وتسحق أهله أيضاً .

ونعود إلى قصتنا . ذكرت لكِ المرحلة التي تقدمت إليها الصناعة في الأكواخ الهندية عندما وصل إليها البريـطانيون . ولو بقيت الهند وحدها ولم يصل إليها البريطانيـون لكان من الممكن أن تقوم فيها صناعة آلية بفضل التطور الطبيعي ، لأن فيها الحديد والفحم وهما كما نعلم العامل الأساسي للوثبـة الصناعية في إنكلترا ، وإلى حد كبيـر العامـل على نشوئهـا

أصلاً . وقد كان من الممكن أن يحصل ذلك في الهند أيضاً في يـوم من الأيام ، وإن كـان يجيء متأخـراً بسبب النظام السياسي القائم . ولكن البريطانيين تدخلوا في شؤون البلاد وكانوا يحتلون بلداً كان قد أدخل فعلاً الإنتاج الآلي الضخم . ويتبـادر إلى الـذهن المحـايـد أن البـريـطانيين لهـذا السبب يشجعون مثل هذا التطور في الهند والطبقة التي كان يمكن أن تقوم بذلك . ولكن الحقيقة هي أنهم فعلوا العكس تمـاماً . لأنهم نظروا إلى الهند كمنافس لهم فحطموا صناعتها وثبطوا عزمها عن قيام الصناعة الآلية .

وهكذا نرى عجبـاً عندمـا نراجـع حالـة الهند . نـرى البريطانيون ـ وهـم آنذاك أكثر البلاد الأوروبية تقدماً ـ يصبحون في الهند أكثر الطبقات رجعيـة وتأخـراً ، ويحاولـون إنعاش الطبقة الإقطاعية المشرفة على الهـلاك ، فيخلقون أصحـاب الأمـلاك ويناصـرون مئـات الحكـام المستقلين في نـظامهم الإقطاعي ، ويؤازرون الإقطاعية في الهند . جرى كل هـذا بالرغم من كون الإنكليز في طليعة شعوب أوروبا التي ثارت فيها الطبقة الوسطى البورجوازية وسلمت السلطة للبـرلمان ، ومع أنهم كانوا في طليعة الشعوب التي قامت بالثورة الصناعية التي أدخلت النظام الرأسمالي إلى العالم . وكان سبقهم في هـذه الميادين هـو السبب الذي جعلهم يسبقـون غيرهم في الإستعمار .

وليس من الصعب أن نفهم السبب الذي حمل الإنكليز على هـذا العمل ، لأن الأسـاس الكامـل الذي تقـوم عليـه

الرأسمالية هو التنافس الوحشي والإستغلال وما الإستعمار إلا مرحلة من مراحله . وهكذا أنقذت القوة إنكلترا فقضت على منافساتها فعلاً ووقفت بالمرصاد أمام تقدم أي منافس آخر . ولم يسع إنكلترا أن تصادق جماهير الشعب لأن السبب الوحيد لمجيئها وبقائها في الهند هو استغلال هذا الشعب . ولا يمكن أبداً أن تتحد مصالح المستغِل والمستغَل . وهكذا لجأت إنكلترا إلى بقايا الإقطاع في الهند ، ومع أن الإقطاعيين لم يبقَ لهم كثير من القوة ، إلا أن بريطانيا زادت ثروتهم وأعطتهم قسطاً يسيراً من ثمرة استغلال الشعب . وقد أنعش ذلك عمل هذه الطبقة مؤقتاً وجعلها أمام أمرين : إما أن تقبل الشروط وإما أن تسقط في الهاوية . وقد كانت في الهند حوالي ٧٠٠ ولاية هندية يعتمد كبرها وصغرها على عطف الإنكليز . وإنكِ تذكرين بعضاً من هذه الولايات الكبيرة مثل حيدرآباد وكشمير وميسور وبارودا وجواليا وغيرها . ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الولايات الهنود لم يكونوا من نسل النبلاء الإقطاعيين القدماء . ولكن هناك زعيماً واحداً ينتمي إلى شعب الشمس الذي يعود بنسبه إلى عصر ما قبل التاريخ ولعل منافسه الوحيد في ذلك النسب ميكادو اليابان .

وقد ساعد الحكم البريطاني على إثارة الرجعية الدينية . ومن الغريب أن بريطانيا التي ادعت المسيحية جعلت كلاً من الهندوكية والإسلام في الهند أكثر تطرفاً وشدة . ومن السهل إلى حد بعيد فهم ذلك إذ علمنا أن الغزو الخارجي يحاول دائماً وضع الدين والثقافة للبلد المغزو موضع المدافع عن

نفسه باللجوء إلى الرجعية ، فلم يكن هدف بريطانيا الحقيقي تقوية الدين أو التبشير له ، وإنما كانت تسعى وراء الكسب المادي . وكانت حذرة في عدم تدخلها في شؤون الدين بشكل مفضوح لئلا يتحسس الناس ويثوروا عليها . وهكذا تحاشت بريطانيا حتى مجرد إثارة الشك بأنها تتدخل في شؤون الدين فذهبت في تشجيعه ، أو بالأحرى تشجيع المظاهر الخارجية للدين . وكثيراً ما نتج عن ذلك بناء ظاهر الدين واختفاء الجوهر .

ودفع خوف بريطانيا من الشعب المتدين إلى التظاهر بأنها تقرهم على خطتهم الدينية . وبهذا أوقفت إنكلترا تيار التقدم والإصلاح . ومن الصعب على الدولة الأجنبية على كل حال إدخال الإصلاح لأن الشعب يكره أي محاولة تقوم بها . وكان الدين والقانون الهندوكي في حالة تطور ولكنهما تباطآ في العصور الأخيرة . فالقانون الهندوكي مبني إلى حد كبير على العرق ، والعرق بطبيعته في حالة تطور مستمر . ولكن هذا أيضاً وقف في عهد البريطانيين وسنت القوانين الجامدة بمشورة المغالين في الدين . وتوقف نمو المجتمع الهندي . وقد كان المسلمون في الهند أكثر سخطاً على التبديل والتطور فتمسكوا بالرجعية .

يدعي الإنكليز لأنفسهم القسط الأوفر من الثناء لإلغاء عادة حرق الأرملة الهندية عند وفاة زوجها وحرق جثمانه . وأنهم استحقوا شيئاً من الثناء لذلك . إلا أن الحقيقة هي أن الحكومة لم تفعل ذلك إلا بعد سنين عديدة من مطالبة مصلحي الهند وعلى رأسهم راجا دام موهان روي وقد سبقهم

إلى منعها حكام ماراناس . وقد ألغاها البوكراك البرتغالي في مستعمرة جوا الهندية . وقد ألغاها البريطانيون بعد مطالبة المصلحين الهنود والمبشرين المسيحيين . ولا أعرف لبريطانيا إصلاحاً دينياً غيره . وهكذا تحالف البريطانيون مع جميع العناصر الرجعية والمحافظة في الهند . وحاولوا جعل الهند مجرد بلد زراعي منتج للمواد الخام اللازمة لصناعاتهم . وحاولوا منع دخول الآلات للهند ففرضوا الرسوم الباهظة عليها. أما البلدان الأخرى فإنها شجعت الصناعة وسنرى بعد قليل وثبة اليابان الرائعة في المضمار الصناعي أما في الهند فقد داست بريطانيا الصناعة وأصبح بناء المصنع في الهند ـ بسبب الرسوم المفروضة على إستيراد الآلات ـ يكلف أربعة أضعاف مثيله في بريطانيا ، وبالرغم من رخص الأيدي العاملة في الهند . وهذا الإجراء يؤخر التطور والنمو ، وإن لم يستطع أن يوقف التيار كلياً إلى الأبد . فبدأت الصناعة الآلية تدخل البلاد في منتصف القرن وبدأت صناعة القنب في البنغال برأسمال بريطاني . وقد ساعد قيام السكك الحديدية على تقدم الصناعة ، فقامت بعد عام ١٨٨٢ معامل القطن برأسمال أغلبه هندي في بومباي وأحمد آباد . وقامت بعد ذلك صناعة التعدين . وكأن معظم المال المستغل في الصناعة ، باستثناء مصانع القطن ، بريطانياً . وكان كل ذلك يكاد يكون رغم أنف الحكومة . وكانت بريطانيا تتغنى بسياسة السوق المفتوحة الحرة وفتح الباب أما الإستعمار الفردي . ولكن عندما كانت تجارة الهند في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

تنافس التجارة الإنكليزية ، قامت إنكلترا بالقضاء عليها بفرض الرسوم الباهظة ومنع استيرادها . فلما تفوقت بريطانيا أمكنها التغني بسياسة السوق المفتوحة. وبالرغم من ذلك فإنها حاولت تثبيط عزيمة صناعة القطن في بومباي وأحمد آباد ففرضت على المنتجات ضريبة دعتها ضريبة القطن لتمكن بذلك بضاعة لنكستير الإنكليزية من منافسة المنسوجات الهندية . ومع أن كل دول العالم تقريباً تفرض الجمارك على البضائع الأجنبية لحماية بضائعها أو للحصول على دخل لخزينتها ، إلا أن بريطانيا فعلت عجباً إذ وضعت الرسوم على البضائع الهندية مع أنها هي حاكمة في الهند . ولم تلغِ ضريبة القطن هذه إلا مؤخراً ، بالرغم من كثرة الإحتجاجات الموجهة إليها .

وهكذا كان نمو الصناعة الهندية بطيئاً ، وقد تم رغم أنف الحكومة . وقد كانت الطبقات الفنية تنادي بالتصنيع . ولم تؤلف الحكومة إدارة للتجارة والصناعة إلا في عام ١٩٥٠ ، ولكن عملها هذا لم يثمر إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى .

ونما مع التطور الصناعي طبقة العمال المشتغلين في مصانع المدن . وحمل الفقر إلى الأرض الذي حدثتك عنه ، وقيام ما يشبه المجاعة في المناطق الريفية ، حمل أبناء القرى على المهاجرة إلى المعامل والمزارع التي أخذت تظهر في البنغال وأسام ، كما قام عدد كبير بالهجرة إلى بلدان أخرى سعياً وراء أجور أحسن كجنوب أفريقيا وفيجي وموريشوس

وسيلان . غير أن الهجرة لم تفد العمال كثيراً لأن المهاجرين عوملوا بما يشبه الرق . ولم تكن حالتهم في مزارع الشاي في أسام أصلح من ذلك . وحاول الكثيرون بعد فشلهم وخيبة أملهم أن يعودوا إلى قراهم فلم تحسن قراهم وفادتهم ولم يجدوا عملاً لأن الحاجة إلى الأرض كانت ماسة . وقد أدرك العمال أن زيادة الأجر في المصنع لم تسمن أو تغن من جوع لأن الأسعار في المدن كانت مرتفعة ، وكان مستوى المعيشة عالياً . وكانت مساكنهم كهوفاً تعيسة ، رطبة مظلمة قذرة . وكانت ظروف العمل في غاية السوء . ومع أنهم كانوا قد قاسوا من الجوع في القرية إلا أنهم كانوا قد تمتعوا فيها بالشمس والهواء النقي ، وهما ما لا يجدهما عامل المصنع . ولم يكن الأجر يكفي لتغطية نفقات المعيشة . وكان النساء والأطفال أيضاً يشتغلون الساعات المرهقة ، وكانت الأمهات الحاملات أطفالهن على أيديهن يخدرنهم بمخدرات منومة حتى لا يعيقوهن عن العمل ! وهذه الظروف التي عاشها عمال المصانع ربّت فيهم روح التذمر . وكان تذمرهم هذا يؤدي إلى الإضراب ، ولكن دون جدوى لأنهم كانوا ضعفاء لدرجة لا تمكنهم من الوقوف بوجه الآخرين الموسرين الذين تساندهم الحكومة . ولكن الزمن والخبرة المرة أرشدتهم إلى قيمة العمل الجماعي الموحد ، فألفوا نقابات العمال .

ولا يتطرق إلى ذهنكِ أنني أتكلم عن أحوال ماضية ، فما زالت حالة العمال سيئة ولم تتحسن إلا قليلاً ، وإن صدرت بعض القوانين التي تحمي العمال المساكين قليلاً .

وما عليك إلا أن تذهبي إلى كون بـور أو بومبـاي أو الأماكن الأخرى التي توجد فيها المصـانع ، ولـو اطلعت هناك على بيوت العمال لملئتِ منها رعباً .

أخبرتكِ في هذه الرسالة والرسائل الأخرى عن الحكومة البريطانية في الهند : كيف كانت وكيف سلكت . كانت هناك أولاً شركة الهند الشرقية وكان يقف خلفها البرلمان البريطاني . وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ تسلم البرلمان البريطاني زمام الأمر ، ثم الملك الإنكليزي أو بالأحرى الملكة التي أصبحت أمبراطورة الهند . وقد كان في الهند حاكم عام أصبح نائب الملك وتحته حشد كبير من الموظفين . وقسمت الهند ـ كما هي تقريباً ـ إلى ولايات ومقاطعـات . كانت ألـوية خـاضعة لحكام هنود المفروض أنهم شبه مستقلين ، ولكن الواقع أنهم كانوا دون حد أدنى من الإستقلال . وكان في كل ولاية مقيم بـريطاني لـه السلطة العـامـة على الإدارة . ولم تكن تهمـه الإصلاحات الداخلية أو سوء الإدارة في الولايـة ، لأن همه الأوحد تعزيز النفوذ البريطاني فيها . وكانت الولايات تشغـل ثلث الهنـد . أمـا الثلثـان الآخـران فقـد كـانـا تحت حكم البريطانيين مباشرة . ودعي هذا الجزء الأخير بالهند البريطانية وكان جميع الموظفين الكبار الإنكليز ، إلا في المدة الأخيرة عندما تسرب إليها بعض الهنود . ولكن النفوذ ظل لبريـطانيا حتى اليـوم . وكان هؤلاء المـوظفين باستثنـاء العسكـريين ، أعضاء فيما يعرف بالجهاز المدني الهندي الذي كان يحكم الهند بأسرها . وتدعى هذه الحكومة التي يديرها الموظفـون

الذين يعينون بعضهم بعضاً (حكومة بيروقراطية) وهي كلمة (بيرو) بمعنى وظيفة .

وإننا نسمع الكثير عن هذا الجهاز . كان رجاله غريبين ، لهم مهارة في بعض الوجوه ، فقد نظموا الحكومة وعززوا النفوذ الإنجليزي واستفادوا مادياً وكانت الدوائر الموكل إليها أمر تعزيز الحكم الإنجليزي وجمع الضرائب على جانب كبير من الفعالية . أما الدوائر الأخرى فإنها كانت مهملة فلم يكن جهاز الخدمة المدنية الهندي يلقي بالاً لهذه الدوائر لأنه لم يكن مسؤولاً أمام الشعب أو معيناً من قبله مع أن هذه الدوائر كانت أكثر الدوائر حساسية لمصلحة الشعب . وقد أصبح رجال الخدمة على درجة كبيرة من الغرور والتعاظم واحتقار الشعب . وظنوا أنفسهم أحكم الناس على وجه الأرض . وقد أسسوا بينهم جمعية التقدير المتبادل لمدح بعضهم بعضاً . وهذا كله ناتج عن السلطة المطلقة التي جعلت الخدمة المدنية سيدة فعلية للهند .

وكان البريطاني بعيداً لدرجة تمنعه من التدخل إذا أراد ، ولكنه لم يرد التدخل لأن هذا الجهاز كان يخدم مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية . أما مصالح شعب الهند فلم تكن داخلة في حسابه وكان النقد الناعم يثير غضب هذا الجهاز وسخطه .

ولا ننكر أن الجهاز يضم بعض الرجال الطيبين الشرفاء ، ولكن هؤلاء لم يقدروا أن يقفوا أمام التيار الجارف

الذي كانت الهند تساق معه ، فقد كان الجهاز المدني خادماً لمصالح بريطانيا المادية وأهم هذه المصالح استغلال الهند .

وقد بلغت فعالية الجهازحداً كبيراً في كل ما يتعلق بمصالحها ومصالح الصناعة البريطانية . ولكنه أهمل ما من شأنه رفع مستوى الشعب كالتعليم والصحة والنظافة والمستشفيات . وحتى مدارس القرية نفسها زالت من الوجود . غير أنه بدأت حركة بسيطة في ميدان التعليم أملتها على بريطانيا حاجتها . فقد كان البريطانيون يشغلون الوظائف الكبيرة ولم يكونوا قادرين على شغل الوظائف البسيطة والوظيفة الكتابية . ولاحتياج البريطانيين إلى الكتاب فإنهم أنشأوا المدارس والكليات لتخريج هؤلاء الكتّاب . وظل هذا هو الهدف من التعليم في الهند ، ولم يكن الخريجون قادرين على تأدية أي عمل آخر سوى الأعمال الكتابية . ولكن عدد الكتاب زاد عن المطلوب للدوائر الحكومية والمكاتب الأخرى فنشأت طبقة جديدة من المتعلمين العاطلين .

كانت البنغال في الطليعة في هذا التعليم البريطاني ، ولذا فقد كانت دفعة الإنتاج الأولى في شباب البنغال . وفي عام ١٨٥٧ أسست ثلاث جامعات في كلكتا وبومباي ومدراس . والجدير بالذكر أن المسلمين في الهند لم ترق لهم هذه النزعة إلى التعليم فلم يصبح منهم كتبة . وقد أحسوا مؤخراً بهذا النقص فقاموا يتذمرون .

ويجدر بنا أن نذكر أن تعليم المرأة أهمل منذ البداية .

ولا يستغرب ذلك على بريطانيا لأنها إنما فتحت أبواب التعليم من أجل هدف واحد وهو إنتاج الكتبة . وكان الرجال هم المطلوبون لأن المرأة لم تكن صالحة لذلك العمل بسبب التقاليد الإجتماعية . وقد ظلت المرأة تقاسي من ذلك إلى أمد بعيد ، حتى فتح أمامها باب التعليم .

تخفيض قيمة العملة الهندية:

كانت الروبية العملة الوطنية الهندية . فقد خفض الإنكليز قيمتها بصورة مستمرة وذلك لخدمة مصالحهم الإقتصادية . وعلى سبيل المثال استطاعت بريطانيا ما بعد الحرب العالمية الأولى أن تلحق بالهند خسائر طائلة . في سنة ١٩٢٧ حدثت مشادة حامية حول تثبيت قيمة الروبية بالنسبة للجنيه الإسترليني والذهب. (وكان الجنيه في ذلك الوقت مرتبطاً بقاعدة الذهب) . وسيثبت هذه المشادة أن الحكومة أرادت أن تثبت قيمة الروبية بشلن واحد وست بنسات وأراد الرأي العام الهندي تثبيتها بشلن واحد وأربع بنسات . فالمشكلة بحد ذاتها قديمة ، وتنحصر في أنه إذا ثبتت الروبية بسعر أعلى استفاد أصحاب البنوك والدائنون وأصحاب الأموال وشجّع الإستيراد من الخارج ، ولكنها إذا ثبتت بسعر مخفض خفّ حمل المدنيين وشجعت الصناعات المحلية والتصدير إلى الخارج . وبالفعل نفذت الحكومة رأيها برغم معارضة الشعب الهندي ، واعتبر كثير من الناس هذا الأمر انكماشاً مالياً لأنه في الواقع يعطي الروبية سعراً أكثر مما تستحق . ولم تعمل أية دولة في العالم انكماشاً في عملتها سوى إنكلترا في

سنة ١٩٢٥ عندما ربطت الجنيه بقاعدة الذهب . ولكنها كانت تريد من وراء ذلك الإحتفاظ بـزعامتهـا الماليـة في العالـم ، فكانت لذلك على استعداد للتضحية بأشياء كثيرة . أما فرنسا وألمـانيا وبقيـة البلدان فكانت تفضـل التضخم المـالي على انكماشه وذلك من أجل تخفيض الضائقة الإقتصادية .

كان رفع سعر الروبية يعني زيادة رأس المال الإنكليزي المستغـل في الهند ، ويعني أيضـاً عبئاً جـديداً على كـاهل الصناعة لأن أثمان منتوجاتها ارتفعت . والأهم من كل هذا أنه يعني أعباء جديـدة على كواهـل جميع الفـلاحين وأصحاب الأراضي المـدنيين ، لأنه بـارتفاع سعـر الروبيـة زادت قيمة ديونهم . والفرق بين السعـرين أي بين ١٨ بنساً و١٦ بنسـاً فقط، ولكنه ١٢ ½ بالمئة من قيمة الروبية. فلو فرضنا أن مبلغ الديون الزراعية في الهند يساوي ١٠,٠٠٠ مليون روبية ، فإن الزيادة ١٢ ½ بالمئة عليها تعني زيادة ١٢٥٠ مليون روبية ، وهو مبلغ ليس بالبسيط . إن مبالغ الديون نفسها بالـطبع لم تـزد ، وإنما قيمتها هي التي زادت ، فقيمة النقود الحقيقة هي مقدار ما تستطيع شراؤه بها من قمح وملابس أو أيـة بضائـع أخرى . وهذه القيمة توازن نفسها إذا سمح لها بذلك . فإذا سقطت قوة النقود الشرائية سقطت العملة . وإذا ثبتت قيمـة النقد بأعلى مما هي فهذا يعني أن تعطيه قوة شرائية أكثر مما يستطيع . وهكذا وجد الفلاح نفسه مضطراً إلى أن يدفع قسماً كبيراً من دخله في تسديد ديونه وفوائدها ، وأن لا يبقى له إلا القليل . فكان تثبيت الروبية بهذا السعر وجعل نسبتها للجنيه

كنسبة واحد إلى ستة عاملاً كبيراً في ازدياد الأزمة الإقتصادية سوءاً في الهند .

عندما فصل الجنيه عن قاعدة الذهب في أيلول ١٩٣١ ، فصلت الروبية عنها أيضاً غير أنها بقيت مرتبطة بالجنيه ، وبقيت نسبتها إلى الجنيه واحداً إلى ستة كما كانت ، غير أن ذلك يعني كمية أقل من الذهب . أبقيت الروبية مرتبطة بالجنيه الإسترليني حتى لا تتأثر رؤوس الأموال البريطانية المستغلة في الهند ، لأنه لو تركت الروبية وحدها لهبطت قيمتها ، وهذا يسبب خسارة كبيرة لرأس المال الإسترليني ، فلم يخسر من وراء ذلك سوى المصالح الأجنبية الأخرى في الهند كالأميركية واليابانية لسبب انخفاض قيمتها الذهبية . وهناك كسب آخر جنته إنكلترا من إبقاء الروبية مرتبطة بالجنيه وهي أنها مكنت الصناعات الإنكليزية من شراء المواد الخام بالعملة الإنكليزية ، إذ كلما كبرت المنطقة الإسترلينية واتسعت ازدادت قوة الجنيه .

بسقوط قيمة الروبية تبعاً للجنيه ازداد سعر الذهب بطبيعة الحال . لأن الواحد يستطيع شراء روبيات أكثر بنفس الكمية من الذهب . وهذا ما دعا الناس الذين يواجهون أزمة إقتصادية أن يبيعوا كل الذهب الموجود عندهم بما فيه الحلي ليحصلوا على روبيات أكثر فيسددوا ديونهم . وهكذا بدأ الذهب يتسرب من جميع أنحاء البلاد إلى البنوك ومنها للندن . وبهذه الطريقة تسرب قسم كبير من ذهب الهند إلى إنكلترا وما زال يتسرب . إن هذا الذهب بالإضافة إلى الذهب الذي جاء من مصر ، وهو

الذي أنقذ بنك إنكلترا ومركز بريطانيا المالي ومكنها من تسديد ديونها التي استدانتها في أيلول ١٩٣١ من أمريكا وفرنسا .

ومن المدهش حقاً أنه في الوقت الذي كانت معظم البلاد في العالم غنيها وفقيرها يحتفظ بالذهب الموجود عندها ، راحت إنكلترا تخرج الذهب من الهند بطرق شتى . لقد خزنت كل من الحكومتين الأميركية والفرنسية كميات كبيرة من الذهب ، بعد أن مرّ بطريق ملتوية منذ أن أخرج من المناجم حتى دفن في خزائن البنوك تحت الأرض . يضاف إلى ذلك أن كثيراً من البلدان ومنها بريطانيا منعت على الأفراد إخراج الذهب منها . فكانت ترمي إنكلترا من وراء فصل الجنيه عن قاعدة الذهب إلى المحافظة على الذهب الموجود عندها . بينما تعمل في الهند العكس من ذلك تماماً بما يخدم مصالحها . يضاف إلى ذلك أن بنك بريطانيا المركزي استطاع أن يقوي مركزه نتيجة أحداث عالمية جرت عام ١٩٣٢ . في هذا العام حصلت أزمة بنوك في الولايات المتحدة الأميركية بسبب تجميد قسم من أموالها في ألمانيا ، فاضطر كثير من الأميركيين لبيع دولاراتهم وشراء سندات إسترلينية . وهكذا حصلت الحكومة البريطانية على حوالات مالية أجنبية بالدولارات ، ثم أرسلتها إلى بنك الحكومة في نيويورك واستبدلتها بالذهب ، لأن الدولار كان على قاعدة الذهب ، ويستطيع كل واحد أن يطلب ذهباً بدلاً عنه . وبهذه الطريقة ارتفع رصيد الذهب في إنكلترا دون المساس أو الإضرار بالجنيه أو تنزيل قيمته . ولما أصبحت لندن تملك كل هذا

الذهب وهذه الحوالات المالية رجعت إلى سابق عهدها كمركزٍ مالي للسوق العالمية . أما نيويورك فقد هزمت بنوكهـا مؤقتاً على الأقل ، بسبب الأزمة التي أصابت بنوكها والتي اضطرت آلاف البنوك الصغيرة إلى الإفلاس .

الفصـل الرابع

موقف نهرو من العلم

في رسالة أخرى إلى ابنته أنديرا عن « تطبيقات العلم الحسنة والرديئة » كتب نهرو : « تحدثت لكِ في آخر رسائلي عن تقدم العلم، ولا أدري إن كانت تلك اللمحة سوف تحبب إليك آفاق العلم والمعرفة ، فإن كان الأمر كذلك فيمكنك أن تستنيري بكثير من الكتب عن هذا الموضوع . . . ولكن يجب أن تتذكري أن الفكر الإنساني يتطور بصورة دائماً ويحاول أن يعرف كل شيء حتى عن « الطبيعة » و « أصلِ العالم » ولذلك قد يكون ما أحدثكِ به اليوم غير صحيح غداً . إنني شخصياً أعجب كثيراً بهذا الفكر الإنساني الذي يحلق في الأعالي ويحاول أن يكشف عن كل زاوية من زوايا هذا العالم المترامي الأطراف ويسبر غورها أو فعلها فإنه يستطيع أن يفهم ويقيس الأشياء المتناهية في الكبر والأخرى المتناهية في الصغر .

كل ما نسميه « العلم المجرد » أي العلم الذي ليس له تأثير مباشر على حياتنا . . . وواضح أن نظرية النسبية أو قياس حجم العالم وغيرها لا تؤثر في كثير أو قليل على أحوالنا المعيشية فكل هذه النظريات تعتمد على الرياضيات العالية ، وهذه الرياضيات هي التي تسمى بالعلم المجرد . ومعظم

الناس لا يهتمون بهذا العلم لأن ما يهمهم في الواقع تطبيقاته على حياتنا العادية . وهذا هو ما قلب حياتنا وغيرها خلال المئة والخمسين سنة الماضية . والواقع أن حياتنا اليوم خاضعة تماماً لنتائج هذا العلم ، وأنه لمن الصعب جداً أن نتصور حياتنا بدونها . وكثيراً ما يتحدث الناس عن الأيام الجميلة الماضية وعن العصور الذهبية التي مرت . صحيح أن بعض فترات التاريخ السابقة جميلة ، وقد تفوق أيامنا هذه ، ولكن هذا التفوق في الواقع يعود إلى بعد المسافة والغموض الذي يكتنفها أكثر من أي شيء آخر . ولذلك نميل إلى الاعتقاد بأن عصراً ما كان جميلاً ، لأن بعض الرجال العظام ظهروا فيه . ولكن من المؤكد أن حياة الناس العاديين كانت خلال التاريخ الماضي حياة تعيسة ، ولم يخفف عنهم بعض الأعباء سوى العلم الحديث .

انظري حولكِ تجدي أن معظم الأشياء التي تشاهدينها مرتبطة بشكل من الأشكال بالعلم . إننا نسافر اليوم بواسطة العلوم التطبيقية ، ونتصل مع بعضنا البعض بنفس الواسطة ، ونحضر طعامنا وننقله من مكان لآخر أيضاً بنفس الواسطة ، فالجريدة التي نقرأها ، والكتب التي بين أيدينا ، والورق الذي أكتب عليه الآن والقلم الذي أكتب به ، كل هذه الأشياء نتائج العلم . النظافة والصحة وقهر الأمراض يعتمد على العلم فالدنيا الحاضرة لا يمكن أن تعيش بدون هذه العلوم التطبيقية . وهناك سبب واحد أهم من كل ما تقدم ألا وهو أن العالم بدون علم لا يمكن أن ينتج طعاماً يكفي جميع سكانه ،

ولذلك سيهلك نصفهم بدونه . لقد تحدثت لـكِ عن ازدياد عدد السكان خلال المئة سنة الماضية ، ولا يمكن لهذه الزيادة أن تعيش بدون مساعدة العلم في إنتاج الطعام ونقله من مكان إلى لآخر .

منذ أن استطاع الإنسان أن يخترع ـ بواسطة العلم ـ الآلة الكبيـرة ، وهو مستمـر في تحسينها . وقـد تمكن من إدخال تغييرات كثيرة صغيرة كل سنة وحتي كل شهر في سبيل تحسين كفاءة هذه الآلة وجعلها أقل اعتماداً على المجهود الإنساني . وفي خلال الثلاثين سنة الماضية وصلت هذه التحسينات إلى أوجها ، لدرجة أنها بلغت من التقدم ما جعلها تقلب الصناعة وأساليب الإنتاج تماماً كما قلبتها الثورة الصناعية في النصف الثـاني من القرن الثـامن عشر . والسبب في هـذا هو زيـادة استعمال الكهرباء في الصناعة . وهكذا نرى ثورة كهربائية في القرن العشرين وخصوصاً في الولايات المتحدة الأميركيـة ، وهذا يقود بدوره إلى تغيير الأحوال المعيشية تماماً . وكما أن الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر قد أنتجت عصر الآلة ، فإن الثورة الكهربائية هذه الأيام تنتج عصر القوة ، فالكهرباء التي تستعمل في الصناعات وسكك الحديد وكثير من الأشياء الأخرى تسيطر على كل شيء .

وقد أنتج استعمال الكهرباء في الصناعة ـ بالإضافة إلى التحسينات الأخرى ـ تغييـرات هامـة دون أن تكلفـ كثيراً . فمثلاً قد يسبب تعديل بسيط في آلة مسيرة بالكهرباء مضاعفة إنتاجها ، ويعـود الفضل في هـذا إلى الإستغناء عن العمـال

الذين يخطئون أكثر من الآلة ويعملون أبطأ منها . وهكذا نرى أنه كلما تحسنت الآلة ، قلّ الإعتماد على الإنسان ، ولذلك فالآلات الضخمة الآن يسيرها عامل واحد فقط يكبس على أزرار معينة . وهذا يساعد على زيادة إنتاج البضائع المصنوعة ، وبنفس الوقت يستغني عن عمال كثيرين لعدم الحاجة إليهم . ولكن تقدم العلم سريع جداً لدرجة أنه ما تكاد الآلة تركب في مصنع ما ويمضي عليها وقت قصير حتى يصبح قسم منها أو حتى كلها من النوع القديم بسبب إدخال تحسينات جديدة عليها .

بدأ استبدال العمال بالآلات ـ كما حدثتكِ سابقاً ـ منذ اختراع الآلات ، وقد أحدث هذا الإستبدال ثورات كثيرة في تلك الأيام ، وحمل العمال على تكسير الآلات الجديدة . ولكنهم وجدوا في النهاية أن وجود الآلات بسبب وجود وظائف جديدة . ولما كان العامل يستطيع إنتاج البضائع أكثر بمساعدة الآلات ارتفع أجره وهبطت أسعار البضائع . وهكذا يتمكن العمال والناس العاديون من شراء بضائع أكثر ، فيرتفع مستوى حياتهم وتزيد حاجتهم للبضائع المصنوعة ، وهذا حمل الناس على بناء مصانع جديدة ، وتشغيل عمال أكثر . ولذلك نرى أنه بالرغم من أن العمال قد استبدلوا بالآلات في كل مصنع من المصانع إلا أن عمالاً أكثر قد وجدوا أعمالاً جديدة في المصانع الكثيرة الحديثة .

استمر هذا الإنتعاش لمدة طويلة وساعده في هذا الاستمرار استغلال البلاد الصناعية للأسواق البعيدة في البلاد

المختلفة . ويظهر أن هذا الإنتعاش قد توقف خلال السنوات القليلة الماضية لأنه من غير الممكن أبداً أن يستمر في ظل النظام الرأسمالي الحاضر ، وإذا أريد له الإستمرار يجب تغيير النظام الذي نعيش فيه . فالصناعة الحديثة تقوم على « الإنتاج بالجملة » وهذا الإنتاج بالجملة لا يمكن أن يستمر إلا إذا اشترى كثير من الناس هذه البضائع ، فإذا كانت أغلبية الناس فقيرة أو عاطلة عن العمل فإنها لا تستطيع شراء هذه البضائع .

وبالرغم من كل هذا فقد استمرت التحسينات الفنية في الآلات دون توقف . واستمر إحلالها محل العمال وإضافة هؤلاء على قائمة العاطلين . وحدث كساد كبيرة في التجارة سنة ١٩٢٩ في كل أنحاء العالم ، ومع ذلك لم يتوقف التقدم الفني ، وقد قيل إن التحسينات الكثيرة التي أدخلت في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٢٩ قد بلغت حداً يمكن الإستغناء به عن الملايين من العمال الذين طردوا من أعمالهم في السابق حتى ولو أرادوا إنتاج ما أنتجوه سنة ١٩٣٩ .

كان هذا هو أحد الأسباب ـ وهناك أسباب أخرى كثيرة ـ التي أدت إلى المشكلة الكبيرة وهي انتشار البطالة في العالم كله وخصوصاً في البلاد الصناعية المتقدمة . إن الأمر لعجيب حقاً ، فالمفروض أن زيادة الإنتاج بواسطة الآلات الحديثة تسبب ازدياد ثروة الأمة وارتفاع مستوى المعيشة ، ولكن هذه الزيادة في الإنتاج سببت كما نرى اليوم الفقر والآلام . ويظن الواحد منا أن هذه المشكلة يمكن حلها إذا طبقنا الأساليب العلمية ، وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن الصعوبة هي محاولة

حلها بالأساليب العلمية المعقولة ، لأن محاولة حلها تؤثر على مصالح كثيرة ، أصحابها من القوة لدرجة أنهم يسيطرون على حكوماتهم . وهناك أيضاً الوضع الدولي ، فكل دولة تنافس الأخرى وتمنع الوصول إلى حل المشكلة . ونرى روسيا السوفياتية تطبق أساليب العلم الحديث على مشاكل مماثلة ، ولكنها تجد صعوبات أكثر من أية دولة أخرى ، لأنها تسير في هذا الطريق وحدها بسبب عداء العالم الرأسمالي لها . فدول العالم اليوم ، إذا أرادت أن تعيش ، يجب أن تعتمد على بعضها البعض . والإشتراكية إذا أريد لها النجاح في النهاية يجب أن تعمم العالم كله . إننا لا نستطيع إرجاع عقارب ساعة الزمن إلى الوراء . وكذلك لا يمكن للعلاقات الدولية أن تخضع لرغبات بعض الدول . إن محاولات بعض الدول الفاشية من أجل إعلاء بلادها على حساب الآخرين لا بد أن تفشل في النهاية لأنها تسير سيراً معاكساً لطبيعة الإقتصاد الدولي هذه الأيام . ومن المحتمل أن هذه الدول ستحمل العالم كله والمدنية معها إلى الهاوية .

إن خطر هذه الكارثة ليس بعيداً كما يظن بعض الناس . وكما رأينا العلم يجلب معه الأشياء الحسنة ، فإنه كذلك يجلب معه أهوال الحرب الفظيعة . وقد تحمل الدول أو الحكومات كثيراً من فروع العلم سواء كانت مجردة أو تطبيقية . ولكنها لا تهمل نواحي العلم الحربية ، فاستغلت كل إمكانية من إمكانيات العالم الحديث لتسليح نفسها وتقويتها . وتعتمد معظم الدول على القوة وأساليب العلم الحديث في

تقوية حكومتها وتخويفها للشعوب دون أن تخشى هي عواقب أعمالها . لقد مضى العهد الذي كانت تقوم به الثورات الشعبية ضد حكومات الظلم والطغيان وبناء المتاريس في الشوارع والإشتباك مع القوات المسلحة كما حدث في الثورة الفرنسية . فمن المستحيل الآن أن يتمكن شعب أعزل أو حتى مسلح من قتال جيش منظم مسلح . وقد يحدث أن ينحاز هذا الجيش للشعب ضد الحكومة ، كما حدث للثورة الروسية ، وبغير هذا لا يمكن أن يوصف بالقوة . ولذلك أملت الضرورة على الناس المكافحين من أجل حريتهم أن يبحثوا عن أساليب سلمية جماعية أخرى .

وهكذا نرى أن العلم قد أدى إلى سيطرة بعض الأفراد أو الجماعات على الحكومات وإلى القضاء على الحرية الفردية والأفكار الديمقراطية التي نشأت في القرن التاسع عشر . وكان هؤلاء الأفراد والجماعات تتظاهر في بعض الأحيان بالعطف على الديمقراطية وفي بعض الأحيان تعلن العداء لها بصراحة . وهذان النوعان من النظم يتعارضان مع بعضهما وسوف يؤديان إلى حرب عالمية ، تدمر هذه الحكومات والمدنية . . .

إن الحرب قاسية بشكل لا يمكن تصوره ، وبسبب ذلك فإن دعاتها يخفونها وراء ستار من الموسيقى العسكرية الجميلة والأزياء البراقة . ومن الضروري أن نعرف ما هي الحرب وكيف تكون في هذا العصر . إن الحرب العالمية الماضية أظهرت حقيقة الحرب وقسوتها ، ومع ذلك فإنها ستكون شيئاً

لا يذكر بالنسبة لأية حرب قادمة . فإذا كان التقدم العلمي في ميدان الصناعة قد تقدم خلال السنين القليلة الماضية عشرة أضعاف ما كانت عليه ، فإن علم الحرب قد تقدم مئة ضعف . لم تعد الحرب هجوماً يقوم به جنود المشاة أو الفرسان ، فهذه أساليب أصبحت عديمة الجدوى هذه الأيام تماماً كالقوس والنشاب ، ولكن الحرب اليوم تشتمل الدبابات والطائرات والقنابل .

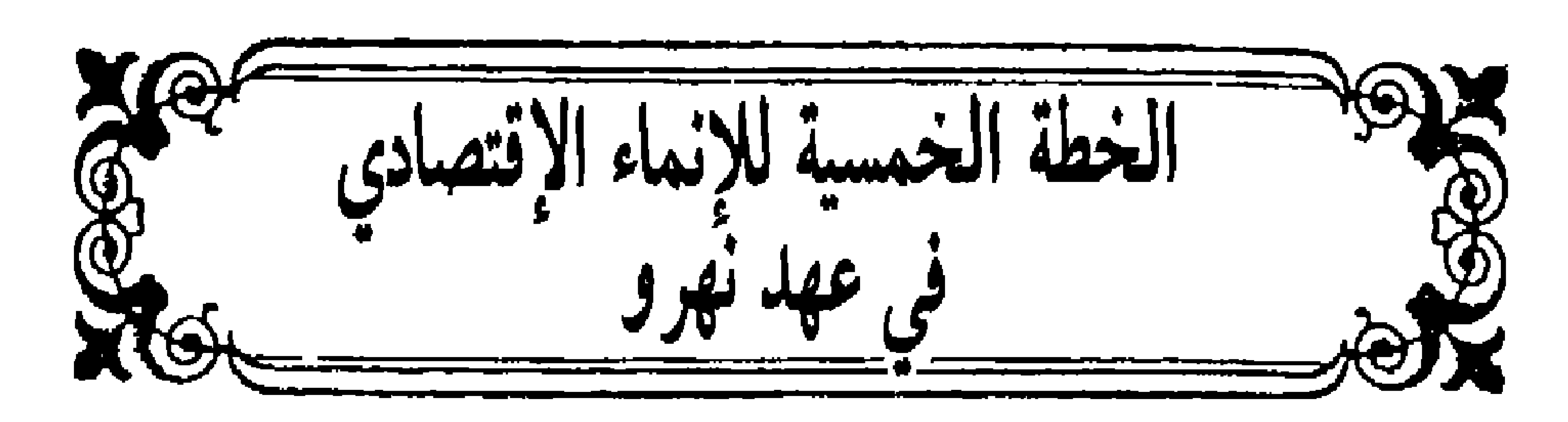
فإذا نشبت الحرب أصبح من المتوقع أن تهاجم كل الدول التي تحاربها بالطائرات بمجرد أن تعلن هذه الحرب ، وقد تهاجمها حتى قبل أن تعلن لتكسب انتصاراً مؤقتاً على العدو فتقذف القنابل على المدن والمصانع . وقد تسقط بعض هذه الطائرات ، ولكن البقية سوف تكفي لتدمير المدينة . . . إن الحرب ستكون دماراً على السكان في أشنع الصور الممكنة ، وستسبب آلاماً ومتاعب نفسانية . وهذا الشيء سيحدث في مدن كلا الطرفين المتحاربين . . .

يبدو كل هذا الوصف فظيعاً لا يمكن تصديقه ، ولكن هذه هي الحقيقة فالوحوش نفسها لا تعمل مثل هذه الأعمال . ولكن الناس يعملون أعمالاً لا تصدق عندما يكون الخوف مستحوذاً عليهم ، ويخوضون معركة حياة أو موت . فخوف كل دولة أن تلجأ الدولة الثانية لمثل هذه الأساليب يجعلها تحاول أن تسبق بقية الدول في هذا المضمار لأن كل دولة تستعمل هذه الأساليب قبل الثانية تسير مرحلة واسعة نحو النصر . . .

وماذا ستكون النتيجة ؟ دمار العالم ! ونهاية الصرح الجميل ـ صرح الثقافة والمدنية التي استغرق بناؤه مئات السنين ـ ! !

لا يدري أحد ماذا يحدث غداً ، إذ أننا لا نستطيع أن نستشف المستقبل من خلال الستار الذي يغلقه . إننا اليوم نرى في هذا العالم نظامين متناقضين متنافسين : الأول يمثل التقدم والتعاون والعقل وبناء صرح المدنية ، والثاني يمثل التدمير وهدم كل شيء ومحاولة للإنتحار . وكلا النظامان يسيران بسرعة هائلة ، ويسلحان نفسيهما بأحدث ما عرف العلم . فمن ينتصر يا ترى ؟ .

الفصـــل الخامس



رأى البانديت نهرو ، رئيس الحكومة الهندية ، أن مبادىء غاندي قد أدت رسالتها في فترة النضال وأنه وجب عليه أن يبني الهند على أسس حديثة . فليس صحيح أن الهند تستطيع العيش متقشفة بل عليها أن تجاري جميع أمم الأرض وأن تسعى الحكومة لزيادة دخل الفرد حتى يتمكن هذا من رفع مستوى معيشته . فالإقتصاد الهندي ، بالنسبة للمفهوم النهروي يجب أن يؤسس على مبادىء علم الإقتصاد الحديث الذي طبق في كثير من البلاد التي كانت متخلفة منذ حين وأصبحت من الدول الكبرى في الزمن الحاضر . فإن بلدين في آسيا برهنا على إمكانية التقدم وهما : اليابان وروسيا . فالأولى بعد أن كان مجتمعها لا يختلف عن مجتمعات القرون الوسطى ، قفزت قفزة واسعة في ميدان الصناعة والتجارة في مدى خمسين سنة وحققت أهدافاً حققتها أوروبا في مئات السنين ، فأصبحت اليابان تنافس الإنتاج الغربي في جميع أسواق العالم حتى أضحت السلع اليابانية الشبح الذي يخيف كل أوروبي وأمريكي . وأما روسيا فإنها أعطت لنهرو درساً فقد تقدمت

تقدماً سريعاً في مدى ثلاثين سنة وأصبحت تنافس دول الغرب في تقدمها وتناطح الغرب بنظامها الإقتصادي .

غير أن مجرد ذكر التقدم الذي أحرزته كل من روسيا واليابان لا يعني مطلقاً إن في إمكان الهند النمو سريعاً والوصول إلى مرتبة الأقطار المتقدمة بعد أن تتخلص من تخلفها . والسبب الرئيسي هو أن الإنماء الإقتصادي في أي بلد في العالم يعتمد على نسبة (الإدخار) . ولا بد من أن نذكر هنا أن نسبة الإدخار في البلاد التي اتبعت نظام الإقتصاد الموجه والإنماء السريع ، كانت تتراوح بين ١٥ إلى ٣٠ بالمائة من مجموع الدخل الأهلي السنوي . فقد كانت نسبة الإدخار في اليابان يقدر بـ ٢٠ بالمائة من مجموع الدخل الأهلي السنوي . واستمرت النسبة على حالتها لمدة أربعين سنة بينما كان نصيب الفرد الواحد من الدخل الأهلي يزداد بنسبة ٣ إلى ٥ بالمائة سنوياً . أما في روسيا فقد استطاعت الحكومة الإحتفاظ بمستوى للإدخار بقدر ٢٥ بالمائة من مجموع الدخل الأهلي ابتداء من فترة تطبيق مشروع السنوات الخمس الأولى . ثم كانت نسبة الإدخار في أستراليا بعد الحرب العالمية الثانية تقدر بـ ٢٢ بالمائة من مجموع الدخل الأهلي بينما كانت نسبة الإدخار السنوية في الأقطار الأوربية بـ ١٧ بالمائة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى . أما نسبة الإدخار في الأقطار المختلفة إقتصادياً فتقدر ما بين ٥ إلى ٧ بالمائة من مجموع الدخل الأهلي السنوي . لكن عندما استسلم نهرو السلطة فقد كانت نسبة الإدخارات الإستثمارية تقدر بـ ٥ بالمائة سنوياً .

إلى جانب ذلك أدرك البانديت نهرو أن أول ما يجب تحقيقه في بلد متخلف إقتصادياً هـو خلق الجو المـلائم الإقتصادي وهذا معناه إيجاد النواحي الأجتماعية والسياسية والإقتصـادية والفنية اللازمة الإسراع في التقدم . وبعبارة أخرى يهدف كل مشروع في بادىء الأمر إلى إزالة هذا النقص (التخلف) في المجتمع . والتنظيم الإقتصادي ليس عصا سحرياً ، كما يظن الكثيـرون ، فهؤلاء يعتقدون أن بـاستطاعـة التنظيم تحـويـل البلدان الفقيرة في برهة قصيرة إلى بلدان غنية راقية منتعشة . إن ثمار التنظيم والمشاريع لا تنضج ولا يحين قطافها مباشرة . وفي نفس الوقت هناك تضحيات وآلام وعقبات ومشاكل من جميع الأنواع يجب على الشعب أن يتحملها ليكون في وسع المجتمع تكوين رؤوس الأمـوال الوطنيـة اللازمـة لأي تطور إقتصـادي مقبل . وعلى كـل من يقـوم بـإعـداد المشـاريـع الإقتصادية أن يفهم معناها ومتطلباتها قبل الإبتداء بتنفيذها .

مشروع نهرو للسنوات الخمس الأولى (١٩٥١ ـ ١٩٥٦):

قبل مشروع السنوات الخمس الأولى كانت الجمهورية الهندية تعاني من النتائج السيئة التي ظهـرت نتيجة للحـرب العالمية الثانية وتقسيم شبه القارة الهنـدية إلى دولتين الهنـد وباكستان . أما الحرب العالمية فقد شلت الحياة الإقتصادية العادية في الهند بالإضافة إلى وصول الجيوش اليـابانيـة إلى الحدود الشمالية الشرقيـة وتعرض معـظم مدن المنـطقة إلى الغارات الجوية بالإضافة إلى أن المصانع وجهت جميعها في اتجـاه المجهود الحـربي ليكسب الحلفاء الحـرب ضد دول

المحور . أما التقسيم فنتائجه معروفة للجميع ومن أهمها ظهور مشكلة اللاجئين الذين قدموا من باكستان والسكان الذين غادروا الهند إلى باكستان . وقد بلغ عدد اللاجئين مئات الألوف إن لم نقل الملايين ، وقد أتى هؤلاء صفر اليدين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ولا يستطيعون عمل شيء إلا إذا قدمت لهم الحكومة كل شيء . ولعل مشكلة اللاجئين لم تكن بأخطر من مشكلة شل الحركة والنشاط الصناعي والتجاري في شبه القارة الهندية . فصناعة الجوت الهندي توقفت تماماً بعد التقسيم وذلك لسبب واحد هو وجود مزارع الجوت في باكستان والمصانع في الهند ولهذا كان على الحكومة أما أن توسع نطاق تجارتها بشكل واسع مع باكستان وأما أن توسع نطاق زراعة القنب في البلاد ذاتها .

واقعياً كان نهرو أمام خيارات صعبة إقتصادية لنقل بلاده من حالة التخلف إلى حالة التقدم . لذلك أقدم على وضع خطة إقتصادية يسار تنفيذها لمدة خمس سنوات . وهذا ما عرف (بمشروع السنوات الخمس) . وما عزز قناعات الرئيس الهندي بهذا المشروع نجاحه في الاتحاد السوفياتي ، فقد قال نهرو عنه : « لقد تناول كثير من الناس مشروع الخمس سنوات بالبحث ، فمنهم من يعتقد أنه نجح نجاحاً باهراً ، ومنهم من يعتقد أنه فشل . وإنه من السهل جداً أن نبين أين فشل ، لأنه فعلاً لم يحقق جميع ما صبوا إليه . كانت الأشياء في روسيا غير متناسبة أبداً ، وأكبر نقص كانوا يعانونه هو نقص العمال المدربين والخبراء . فكان هنالك عدد من المصانع أكثر من

المهندسين اللازمين لإدارتها ، أي أنه كان هنالك مطاعم أكثر من الطباخين . وطبعاً كان عدد التناسب هذا محتوماً أن يزول بسرعة أو على الأقل تدريجياً . شيء واحد بارز ، هو أن مشروع الخمس سنوات قد غير معالم روسيا ، فقد قفزت من دولة إقطاعية متأخرة رأساً إلى دولة صناعية متقدمة . كما أن الثقافة والخدمات الإجتماعية والتأمين الصحي والتأمين ضد الحوادث قد تقدمت تقدماً باهراً أكثر من أية دولة أخرى . وبالرغم من العوز والحاجة ، فإن الخوف من البطالة والجوع الذي يبقى مسلطاً كالسيف على رقاب العمال قد اختفى بالمرة ، وأصبح الشعب يحس بالطمأنينة الإقتصادية .

إن الجدل حول نجاح أو فشل مشروع الخمس سنوات لا محل له بالمرة . لأن الجواب يمكن معرفته بالنظر إلى حالة الاتحاد السوفياتي الآن والملاحظ أن هذا المشروع قد جذب أنظار العالم أجمع . فالكل يتحدث الآن عن التخطيط وعن مشروع الخمس سنوات والعشر سنوات . لقد بث السوفيات في هذه الكلمة سحراً خاصاً » .

قبل أن يقدم نهرو مشروع الخمس سنوات إلى البرلمان الهندي في ٨ أيلول ١٩٥٢ شكل لجنة التنظيم الإقتصادي الهندية في شهر آذار سنة ١٩٥٠ . ونشر موجز للمشروع في حزيران عام ١٩٥١ شاملاً مدة خمس سنوات ابتداء من شهر نيسان ، ١٩٥١ إلى آذار ١٩٥٦ . وقد قسم الموجز إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على رصد مبلغ من المال

تصرف على المشاريع التي ابتدىء بتنفيذها قبل وضع المشروع والتي كانت ستنفذ في حال عدم وجود مشروع الخمس سنوات .

أما القسم الثاني فيقترح رصد مبلغ من المال في حال تأمين المساعدة الخارجية ، وقد كان القصد الرئيسي من تحضير ونشر موجز مشروع الخمس سنوات عرض المشروع على الرأي العام الهندي ليدلي علماء الإقتصاد الذين لم يشتركوا في وضع المشروع بآرائهم حول الفائدة التي ستجنيها البلاد من وراء تنفيذ المشاريع الضخمة وكان القصد من ذلك الحصول على إقتراحات جديدة تساعد اللجنة في وضع توصياتها النهائية في المشروع . وقد أجرت اللجنة الإستشارات مع الحكومة المركزية كما أجرت إتصالات مع جميع الهيئات الشعبية والمؤسسات الوطنية والأحزاب وبعض أعضاء البرلمان الهندي . وجمعت جميع برامج الإنماء الإقتصادي في مشروع واحد . ولم يحدث أي تغيير في المشروع وإنما جاء مشابهاً للموجز الأول .

التعليم في مشروع الخطة الخمسية:

الهند التي تعد من أوسع البلاد أرضاً وأكثرها وأكثفها سكاناً واجهت مشكلة من أصعب المشاكل بعد أن نالت إستقلالها ، وجدت الجهل متفشياً بين صفوف عامة الناس واكتشفت أن لا خلاص للهند إلا بعد أن ترتفع نسبة المتعلمين في البلاد . ولكن الحكومة الهندية لم تعتبر مشكلة الأمية

مشكلة تربوية محضة وإنما اعتبرتها مشكلة إقتصادية قبل كل شيء . وبهذا وضعت هذه المشكلة ضمن إطار مشروع السنوات الخمس الأولى فعينت خبراء هنود ليدرسوا المشكلة ويضعوا التقارير والتوصيات اللازمة على أن يعمل هؤلاء الخبراء في التربية في لجنة هي فرع من لجنة التنظيم الإقتصادي . وقد درس الخبراء مشكلة التعليم في الهند وقدموا تقريراً إضافياً وقدموه إلى الجهات المسؤولة .

وطالب المنظمون الإقتصاديون في الهند أن يعتنى اعتناء خاصاً بالتعليم الإبتدائي والأساسي في مشروع السنوات الخمس الأولى وفترته تمتد من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٦ على أن يهتم اهتماماً خاصاً بالتعليم الثانوي في مشروع السنوات الخمس الثاني . ولكن المنظمين لا ينسون التعليم الثانوي كلياً في المشروع الأول والداعي لذلك هو أن تخرج المدارس الثانوية العدد الكافي من المعلمين الذين سيعملون في المدارس الأساسية والإبتدائية التي ستنشأ في القريب العاجل . وقد طالب المنظمون إدخال بعض مناهج تدريب المعلمين في المدارس الثانوية . أما التعليم العالي في فترة المشروع الأول فيهتم المنظمون بناحية التحسين النوعي وليس التوسع الكمي . ويشمل هذا الاعتناء الأقسام الزراعية والفنية والإدارية والإقتصادية والتجارية والصحية والشؤون الإجتماعية في جميع كليسات الجامعات الهندية بدون استثناء .

الخطة الخمسية والعلاقة مع باكستان:

أدى إعلان دولة باكستان منفصلة عن الهند إلى إرباك

الوضع السياسي بين البلدين كما الوضع الإقتصادي ، وليس سهلاً على كلا النظامين اعتبار ما جرى هو غيمة عابرة في سماء العلاقات ما بين البلدين . فالإفتراق حصل نتيجة قطع سياسي تعمد بالدم ، وكذلك بقيت مناطق مختلف عليها كل يدعي ملكيتها ، وكانت كشمير المحطة الأولى للنزاع العسكري بين الهند وباكستان . فقد أمر نهرو القوات العسكرية الهندية بعبور أراضي كشمير واحتلال أجزاء من أراضيها دون أن ينتظر قرار محكمة العدل الدولية وقرار مجلس الأمن الدولي في حل النزاع الذي ما زال في أدراج مكاتبه . مع أن الإنفصال النهائي لباكستان تقبلته الهند كأمر واقع إلا أن الأمور التجارية لم تسر على ما يرام إذ أن أحداثاً خطيرة حدثت في سنة ١٩٤٩ وفي أيلول قضى على كل أمل لتوثيق عرى العلاقات التجارية بين الهند وباكستان والحدث الخطير الذي تعنيه هو تخفيض الجنيه الإسترليني وما تبعه من خطوات مماثلة في كثير من النقد العالمي ما عدا الدولار لكن الحكومة الباكستانية رفضت تخفيض قيمة روبيتها بينما قبلت الهند بتخفيض قيمة عملتها . وكنتيجة لذلك انخفض مستوى النشاط التجاري بين البلدين ، والنتيجة الأولى لهذا الحدث الخطير أن ارتفعت أسعار القنب الخام بنسبة ٤٤٪ عن أسعار ما قبل التخفيض فامتنع جميع أصحاب مصانع القنب في الهند عن الشراء من باكستان . وقد أحدث هذا الشلل الذي أصاب صناعة القنب الهندية إضطراباً عاماً في الأسواق العالمية لمصنوعات القنب لأن هذه الأسواق كانت معتمدة إلى درجة كبيرة على المصانع الهندية .

واضطرت الحكومة الهندية إلى تقييد إستيرادها من باكستان فلم تستورد سوى ما كانت بحاجة إليه مثل السمك والفاكهة والحليب ومشتقات الحليب حتى تقلل الحكومة من العجز في الجانب الهندي في ميزان المدفوعات مع دولة باكستان .

استمرت الحكومتان إلى فترة طويلة من الزمن باتخاذ الإجراءات المعاكسة الإنتقامية إلى أن انخفضت قيمة صادرات الباكستان إلى الهند . ولكن الإنخفاض في العجز لم يحقق إلا بالقضاء على ثلثي التجارة الهندية الباكستانية التي كانت جارية ما بين شهر تموز سنة ١٩٤٨ وشهر حزيران ١٩٤٩ .

الإتفاقية التجارية سنة ١٩٥١ :

وقعت هذه الإتفاقية في شهر نيسان ١٩٥١ وتنص على أن تصدر باكستان ٨٠٠٠٠٠ بالة من القنب الخام وتودع قيمة القنب في البنك المركزي الباكستاني في الروبيات الهندية على حساب الهند على شرط أن تشتري باكستان بهذه القيمة بعض السلع المنصوص عليها مثل مصنوعات القنب (٢٠٠٠٠ طن) ومنسوجات القطن (٤٥٠٠٠ بالة) والزيوت النباتية (٧٠٠٠ طن) والصلب (٥٠٠٠ طن) إلخ إلى جانب هذه الناحية من الإتفاقية المؤسسة قبل كل شيء على المقايضة فإنه سمح بالتجارة ببعض السلع على أساس غير مقيد وليس على كلتا الدولتين أن تؤمنا العملة الصعبة مقابل هذه السلع غير الداخلة في بند المقايضة . وقد انتهى أجل الإتفاقية في شهر أيلول من السنة ذاتها ولم تكن ناجحة إلى الحد المرغوب فيه .

ونشبت الحرب الكورية الأمر الذي جعل المساومة من ناحية باكستان عظيمة جداً لازدياد الطلب على ما تنتجه من مواد خام متنوعة . وقد اعترف صندوق النقد الدولي بقيمة الصرف للروبية الباكستانية حينما أصبحت دولة باكستان عضواً في المنظمة الدولية المذكورة . وعقدت إتفاقية تجارية جديدة بين البلدين ذات نطاق أوسع في شهر شباط من سنة ١٩٥١ ، وبموجب الإتفاقية الجديدة اعترفت الهند بقيمة الروبية الباكستانية كما أعلن عنها صندوق النقد الدولي ، كما أنه يجب على باكستان أن تمون الهند بثلاثة ملايين طن من الحبوب بينما يجب على الهند أن تمون باكستان بمليوني طن من الفحم وخمسة وسبعين ألف بالة من الألبسة الجاهزة وخمسة عشر ألف بالة من غزل القطن و ٦٢٥٠٠ طن من مصنوعات القنب . ولم يكن النجاح من نصيب هذه الإتفاقية . ثم عقدت إتفاقية أخرى في سنة ١٩٥٣ ومن أهم بنودها أن تمون باكستان الهند ١٨٠٠٠٠٠ بالة من القنب سنوياً وعلى الهند أن تمون باكستان بمليون طن من الفحم سنوياً .

الفصـل السادس

وجهة نظر نهرو من الإسلام والفتوحات الإسلامية الأولى

أستأثر الكلام عن مجيء الإسلام والفتوحات الإسلامية حيزاً مهماً من رسائل نهرو إلى ابنته أنديرا . برأيي تكتسب هذه الرسائل أهمية نظراً للدور الكبير الذي لعبه وسيلعبه الإسلام في شبه القارة الهندية . يقول نهرو في رسالته : « لقد عالجنا تاريخ بلدان عديدة ونشوء وسقوط امبراطوريات وممالك كثيرة ، ولم نتطرق إلى تاريخ الجزيرة العربية ولم نذكر عنها إلا أنها كانت تخرج البحارة والتجار إلى الأصقاع النائية في العالم .

إذا نظرتِ إلى خارطة العالم فإنكِ ترين غرب الجزيرة مصر وإلى شمالها سوريا والعراق وإلى شرقها بلاد العجم أو إيران وإلى شمالها الغربي آسيا الصغرى . وليست اليونان بعيدة عنها . كما أن الهند واقعة على طرق البحر الآخر منها . وإذا استثنينا الصين والشرق الأقصى وجدنا أن الجزيرة العربية كانت واقعة في مركز الحضارات القديمة . لقد قامت المدن العظيمة على دجلة والفرات في العراق ، وقامت الإسكندرية

في مصر ، ودمشق في سوريا وإنطاكية في آسيا الصغـرى . وكان العربي رحالة وتاجراً ، ولا بـد أنه طـرق هذه الأمـاكن مرات عديدة . ولكن الجزيرة ظلت بعيدة ولم تلعب دوراً كبيراً في التاريخ لأن الحضارات القائمة في الجزيـرة آنذاك ظلت مقصرة عن تلك التي جاورتها فلم تحاول أن تقهر غيرها من البلدان كمـا أنه لم يكن من السهـل التغلب على الجـزيـرة ذاتها .

الجزيرة العربية بلاد صحراوية ، وللصحراء والجبال أثر في جعل الناس أشداء يحبون حريتهم ويأبون الضيم . وكانت الجزيرة قصيرة فلم تغزِ الأجانب الغزاة والمستعمرين . وكان فيها مدينتان قريبتان من البحر وهما مكة ويثـرب . أما بقيـة السكان فقد كانوا يعيشون في الصحراء . وكان أغلبهم بدواً رحـلاً . وكان يـلازمهم الجمل السـريع والحصـان الجميـل والحمار ـ الذي كان يعتبر صديقاً وفياً لما عرف عنه من صبر وجلد ـ . وكان الإنسان يسر إذا شبه بالحمار ، مـع أن أهل البلدان الأخـرى يثـورون غضبـاً إذا شبهـوا بـالحمـار وحيـاة الصحراء قاسية ، والقوة والجلد صفتـان ثمينتان فيهـا . كان عرب الصحراء ذوي عزة وأنفة وشعور مرهف ومـولعين بغزو بعضهم البعض . كان الفرد ينتسب إلى قبيلة وعشيـرة وهذه القبيلة تتقاتل مع غيرها من القبائل . وكانت لهم هدنة واحدة في كل عام يحرم فيها القتال ويحج إلى مكة لزيارة الآلهة التي صـوروها على شكـل أوثان وعبـدوها بـالإضافـة إلى الحجر الأسود . كانت حياة عرب الجزيرة حياة بدو رحل يخضعون

لحكم رئيس القبيلة . وهي حياة شبيهة بجبال أهل آسيا الصغرى وغيرها قبل أن يستقروا ويعيشوا حياة المدن والتحضر .

وكثيراً ما كانت الأمبراطوريات التي تكتشف الجزيرة تعتبرها ضمن ممتلكاتها ولو كان ذلك إسمياً أكثر منه فعلياً ، لأن إخضاع القبائل الرحل وحكمها من أصعب الصعاب .

لعلك تذكرين أنه قد قامت في القرن الثالث الميلادي دولة عربية صغيرة في تدمر في سوريا حققت لها مجداً لم يكتب له البقاء طويلاً .

ولكن هذه الدول كانت خارج جزيرة العرب التي نتكلم عنها هنا . فقد ظل العرب في الجزيرة يعيشون على وتيرة واحدة في صحرائهم جيلاً بعد جيل ويرسلون سفنهم للتجارة ، لقد تنصر بعض العرب واعتنق بعضهم اليهودية ، ولكن الغالبية ظلت تعبد الأصنام التي بلغ عددها ٣٦٠ صنماً ، ويضاف إليها الحجر الأسود .

والمدهش حقاً أن يلاحظ هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً أجيالاً عديدة بعيداً عما يجري حوله قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأساً على عقب . وإن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ ! إن الإسلام هو الباعث والفكرة لهذه اليقظة العربية بما بثه في اتباعه من ثقة ونشاط حمل رسالة الإسلام إلى

العرب نبي جديد اسمه محمد ، ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية . ولم يكن محمد عجولاً في نشر رسالته ، بل ظل زمناً يعيش حياة هادئة يعجب به مواطنوه ويثقون به حتى لقبوه بالأمين . فلما قام يبشر برسالته ويهاجم الأوثان قام الناس عليه وآذوه فاضطر أن ينجو بحياته وأن يهاجر من مكة . وكانت رسالة محمد لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ولقي محمد في يثرب من ينصره وينصر إخوانه المهاجرين من مكة . وقد عرف هذا الحادث الذي تم عام ٦٢٢ ميلادية بالهجرة ، واتخذ بداية للتاريخ الإسلامي . والسنة الهجرية تعتمد في حسابها على القمر دون الشمس وتنقص بذلك عن السنة الشمسية حوالي عشرة أيام . ولا تحل شهور السنة الهجرية دائماً في نفس الفصول ، إذ ربما كان أحد شهورها في الشتاء تارة وفي منتصف الصيف تارة أخرى .

يجوز لنا أن نعتبر الهجرة ، أي عام ٦٢٢ الميلادي ، فجر الإسلام مع الدعوة إليه قد سبقت الهجرة قليلاً . وقد رحبت مدينة يثرب بمحمد وإخوانه وسميت بمدينة الرسول أو المدينة ، وسمي أهلها الذين آووا محمداً ونصروه بالأنصار وما زال أحفاد الأنصار يفتخرون حتى اليوم بهذه التسمية .

وقبل أن نعالج موضوع الفتوحات العربية الإسلامية دعيني ألقي نظرة على ما حولنا في تلك الفترة . لقد سقطت روما ، وزالت المدينة الإغريقية الرومانية وانقلب النظام الإجتماعي الذي بنيت عليه تلك المدينة ، وبدأت القبائل

الأوروبية تزحف من الشمال وتستقي من حضارة روما لبناء حضارة قدر لها أن تختلف عن الحضارة الرومانية . ولما كانت هذه الحضارة الأوروبية بدائية كما يظهر من الشواهد الحسية عن حضارتهم آنذاك ، فإن المدينة القديمة الزاهرة قد اختفت مخلفة وراءها ظلاماً وفراغاً لم يسد حتى ظهور الدعوة الإسلامية . غير أننا نلاحظ أنه كان إلى الشرق من الجزيرة الأمبراطورية الرومانية الشرقية التي ظلت حضارتها مزدهرة وكانت أعظم بلد في أوروبا . كانت مدرّجاتها حافلة والملاهي ومظاهر الأبهة والعظمة . غير أن استمرار الحروب مع الساسانيين الفارسيين أفقدها الكثير من قوتها وجعلها تتداعى . وقد استطاع خسرو الثاني ، فعلاً ، إقتطاع جزء من القسطنطينية ، كما نصب نفسه سيداً إسمياً للجزيرة العربية . وفتح بعد ذلك مصر وسار إلى القسطنطينية . لولا أن هزمه هرقل الأمبراطور اليوناني وتوفي على يد والده ، وهكذا نلاحظ أن كلاً من أوروبا إلى الغرب من الجزيرة وفارس إلى الشرق منها كانت في حالة انحلال وتفكك ، كما كانت الخلافات والخرازات بين الطوائف النصرانية لا حصر لها . وكانت النصرانية في الغرب وفي أفريقيا منحلة أيضاً . وكانت الزرادشتية في فارس دين الدولة ، وكانت مفروضة على الشعب فرضاً . وهذا يعني أن الرجل العادي في أوروبا وأفريقيا وفارس كان يقاسي من دينه . ويضاف إلى ذلك أن أوروبا قد تعرضت لموجة عاتية من الأوبئة قضت على الملايين من الناس .

وكان يحكم الهند في ذلك الحين هارشا فارضانا ، وكانت الهند قوة كبيرة ولكن شمالها تفكك وتقسم بعد ذلك . وبدأ في الصين حكم أسرة تانج ، واعتلى عرش البلاد أمبراطور عظيم اسمه تاي تسونج عام (٦٢٧ م) وامتدت الصين زمنه حتى وصلت بحر قزوين غرباً . وقد دانت له معظم بلدان آسيا الصغرى ، ودفعت له الجزية ، ولكن هذه البلاد الواسعة لم تتمتع بحكومة مركزية متماسكة .

هذه هي حالة العالم الآسيوي الأوروبي عند بزوغ فجر الإسلام . كانت الصين قوية منيعة ، ولكنها كانت بعيدة ـ وكانت الهند القوية ـ ولو إلى حين ـ ولكنها ـ كما سنرى ـ لم تشتبك في حرب لمدة طويلة من الزمن . أما أوروبا وأفريقيا فقد كانتا ضعيفتين وهزيلتين .

عاد محمد إلى مكة سيداً مظفراً بعد هجرته منها قبل سبع سنوات . وكان وهو في المدينة قد بعث إلى الملوك والحكام كتباً يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله ورسوله ، وقد وصل الكتاب إلى هرقل أمبراطور القسطنطينية وهو منهمك في حربه مع الفرس في سوريا . وتسلم كسرى كتابه ويقال أن ثاني تسونج تسلم كتابه أيضاً . ولربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الدهشة من هذا الرجل البسيط الذي يدعوهم إلى الطاعة . ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته . وقد هيأ محمد بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة وحوّلها من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم .

كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين . وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الإخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين . وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد ! وإنك إذا تقارنين رسالة الإخوة الإسلامية هذه بحالة النصرانية المنحلة تعرفين مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن من جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب .

توفي محمد عام ٦٣٢م . أي بعد الهجرة بعشر سنوات ، بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماساً . وخلفه أبو بكر المنتمي إلى عشيرته . وكانت الخلافة مبايعة علنية يبايع المسلمون فيها الخليفة الجديد . وقد توفي أبو بكر بعد عامين ، فبويع عمر الذي قتل بعد عشر سنوات .

كان أبو بكر وعمر رجلين عظيمين ، وقد وصفا الأساس الذي بنيت عليه عظمة العرب والمسلمين . وكانا خليفتين يجمعان في يدهما السلطة الزمنية والسلطة الدينية معاً . ولكنهما ، وبالرغم من عظم المنصب وقوة الدولة ! زهاداً في متاع الحياة الدنيا بما فيها من أبهة وعظمة . هذه في الحياة الديمقراطية الإسلامية الحقيقة التي وضعها الخليفتان موضع العمل ، وإن كان بعض الولاة والأمراء قد فتنوا بحياة النعيم والترف والحرير . وقد رويت قصص عن قيام أبي بكر وعمر بتأنيب الولاة على تبذيرهم وترفهم . لقد أدرك الخليفتان أن قوتهما تكمن في الحياة الخشنة الساذجة وأن الإنغماس في

اللهو والترف السائدين في أيوان كسرى وبلاط القسطنطينية سيفسد العرب ويزيل ملكهم .

في هذه السنوات الإثنتي عشرة التي حكم بها أبو بكر وعمر استطاع العرب أن يهزموا كلاً من الأمبراطورية الرومانية الشرقية وكسرى فارس ، وأن يدخلوا القدس (المقدس لدى اليهود والنصارى) . وأصبحت سوريا والعراق وفارس مجرد أجزاء في جسم الأمبراطورية العربية الجديدة .

الفصـــل السابع

نهرو وسياسة عدم الإنحياز

ثمة اختلاف بين الباحثين حول تاريخ الحياد الإيجابي أو ما سمي فيما بعد ذلك بفكرة عدم الإنحياز . فهناك من يرى إنها تعود إلى مؤتمر باندونغ الذي انعقد في أندونيسيا (نيسان ١٩٥٥) . غير أن الإتجاه الغالب الآن أن التعبير عن الفكرة كنهج سياسي دولي صدر في فترات تسبق مؤتمر باندونغ بسنوات ، من ذلك مثلاً إن الزعيم الهندي بانديت نهرو قد صرح في أيلول ١٩٤٦ ـ وكان وزير لخارجية بلاده وشؤون الكومنولت في دولته بقوله : « إن سياسة الهند هي الابتعاد عن سياسة القوى التي تتبعها الكتل المتصارعة بعضها مع بعض . تلك السياسة التي أدت في الماضي إلى الحروب العالمية والتي قد تؤدي في المستقبل إلى دمار في نطاق أكبر» . وفي خطاب آخر لرئيس وزراء الهند جواهر لآل نهرو ، ٤ كانون من السنة ١٩٤٧ ، على أثر تخلص الشعب الهندي من قيود الظلم الإستعماري ، رأى بلوغ أهداف السياسة الخارجية عن طريق بث القضايا الدولية لمصلحة ضمان الإستقلال في صورة مستقلة . من هنا حرص نهرو إلى جانب توليه زعامة حزب المؤتمر ورئاسة الحكومة إلى أن يكون وزيراً للخارجية وذلك

ليتسنى الأشراف المباشر علي تنفيذ سياسته غير المنحازة حتى تشكل في النهاية تياراً عالمياً . ومن ذلك ما صرح به مندوب مصر لدى مجلس الأمن الدكتور محمود فوزي ، ٣٠ حزيران ١٩٥٠ ، بصدد المشكلة الكورية حين قال ما معناه أن هـذا الصـراع ليس إلا صورة من صـور الحرب البـاردة وبلاده لا ترضى أن تقحم نفسها فيها وأنه كان هناك عدة حالات عدوان على الشعوب وامتهان للسيادة والوحدة الإقليمية لدول أعضاء في لأمم المتحدة وتلك الإعتداءات وهذا الامتهان عرض على اومم المتحدة ولم تتخذ بشأنهما أي إجراء لأنهائهما كما فعلت بالنسبة لقضية كوريا .

كذلك نجد تصريحاً عن سياسة عدم الإنحياز مشابهـاً للتصريح السابق أدلى به (ثانكين نو) رئيس وزراء بورما إذ أعلن في ١٩ تموز ١٩٥٠ أن « بورما لا ترغب في الإنحياز إلى أي كتلة تتصارع مع كتلة مضادة لها . . . » .

ما الذي ابتغته سياسة عدم الإنحياز في ظروف فترة ما بعد الحرب الثانية بالذات ؟ كان ذلك عصر تغيرات هائلة ، عصـر تكـون ونمـو المعسكـر الإشتـراكي ، وانهيـار مـواقـع للإستعمار وقيام مجموعة كاملة من البلدان المتحررة الناشئة ، الناهضة من تحت أنقاض الأمبراطوريات الإستعمارية . وكان اعتماد المعسكر الغربي في ذلك العهـد على إنشاء أحـلاف عسكرية موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ، وعلى تشديد حـدة التوتر الدولي المحفوف بخطر نشوب حرب عالمية جديدة .

ولذلك كله اتخذ عدم الإنحياز من الأحلاف العسكرية موضوعياً اتجاهاً معادياً للحرب .

ثم أعلن مؤتمر باندونغ لأول مرة في السنة ١٩٥٥ التي اشترك فيه ٢٩ بلداً من بلدان آسيا وأفريقيا خروج البلدان الأفرو - آسيوية إلى المسرح العالمي بوصفها دولة كاملة الحقوق في العلاقات الدولية . وتكلم المشتركون في مؤتمر باندونغ دفاعاً عن الشعوب المظلومة وطالبوا بإحقاق الحقوق المشروعة للأمم في تقرير المصير وأدانوا الإستعمار في مظاهره كافة . كما أشارت مجموعة كبيرة من البلدان الفتية إلى تمسكها بالسلام وأعربت عن عميق قلقها إزاء خطر الكارثة النووية الناشيء بجزيرة رواد « الحرب الباردة » ودعت إلى نزع السلاح الكامل والشامل .

يقول الدكتور بطرس غالي ، الأمين العام للأمم المتحدة حالياً ، في هذا الصدد : «يضاف إلى كل ذلك أن مؤتمر باندونغ كان أول مؤتمر للدول الأفرو اسيوية وليس أول مؤتمر لدول عدم الإنحياز وأن الدول المنحازة في هذا المؤتمر كانت تمثل الأغلبية الكبرى من أعضاء هذا المؤتمر إذ أن الدول التي اشتركت في المؤتمر وعددها تسع وعشرون دولة كان معظمها مرتبطاً بالمعسكر الغربي بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر أو عن طريق معونات إقتصادية . بل أن عشرين دولة في مجموع الدول المشتركة في المؤتمر نالت في عام انعقاده معونات إقتصادية من الولايات المتحدة قدرها خمسمائة مليون دولار . والحق أنه لم يكن من بين الدول التي اشتركت في المؤتمر إلا

ست دول نستطيع أن نقول أنها حيادية ملتزمة بسياسة عدم الإنحياز وهي : أفغانستان ، أندونيسيا ، بورما ، سوريا ، ومصر والهند . وحتى هذه الدول الست لم يكن عدم الإنحياز واضحاً أمامها متبلوراً في آثاره وأبعاده فيها . وفوق هذا فإننا لا نجد في مقررات باندونغ إشارة صريحة إلى سياسة الحياد الإيجابي (عدم الإنحياز) . ومع هذا فإن من الممكن القول إنه في مؤتمر باندونغ وضعت بذرة سياسة عدم الإنحياز وتلك البذور ظهرت في الجدل السياسي الذي دار خلال المؤتمر حول مفهوم الإنحياز ، واللاإنحياز » .

فقد تولى نهرو الدفاع عن سياسة اللاإنحياز موضحاً مدى الإهانة التي تتعرض لها أي دولة من دول العالم الثالث تقبل أن تدور في تلك أي من المعسكرين المتناهضين .

وعزز مندوب سوريا في المؤتمر أحمد الشقيري موقف نهرو بقوله : « إننا نمثل أكبر قارتين في الأرض وفي أقاليمنا أهم القواعد والمناطق الإستراتيجية فإذا قررنا بإرادتنا مجتمعة ألا تقع حرب فإن مثل هذا الحرب لا يمكن أن تقع » . ويرى بعضهم أن تلك الحجة-كانت البادرة الأولى لمناطق السلام التي أضحت محل نقاش في مؤتمرات كتلة عدم الإنحياز فيما بعد .

ولقد قوبلت فكرة عدم الإنحياز هذه بهجوم شديد من جانب مجموعة من الدول المنحازة آنئذٍ وكان من أبرز المهاجمين فاضل الجمالي مندوب العراق أيام الملكية وشارل مالك مندوب لبنان في عهد الرئيس كميل شمعون والجنرال

رومورو مندوب الفلبين . وقد انصب هجومهم على اللاإنحياز ودفاعهم على الإنحياز والتحالف في نقطتين :

أولاهما : أن الدول الصغرى لا مناص لها من التحالف عسكرياً مع الدول الكبرى إذا ما شاءت ضمان سيادتها ووحدتها الإقليمية لأنها لوحدها عاجزة عن ذلك .

وثانيتهما : أن الدول الصغرى مستعدة ألا تتحالف مع أحد المعسكرين المتناهضين ولو تكتلت الدول غير المنحازة لتكوّن فيما بينها جبهة تحمي بعضها ولكن ما دامت الدول الكبرى غير المنحازة كالهند والصين لا تقدم للدول الصغرى هذا الضمان فلا مفر لهذه الأخيرة من اللجوء إلى أحد المعسكرين الكبيرين لحماية استقلالها وسيادتها .

وفي ختام المؤتمر وفق المشتركون فيه إلى حل ارتضاه الطرفان المتنازعان داخله . فبموجب المبدأ الخامس من إعلان باندونغ نجد نص على « احترام حق كل دولة في الدفاع عن نفسها فردياً أو جماعياً وفقاً لميثاق الأمم المتحدة » وفي هذا إقرار بحق الدول في الدخول في أحلاف عسكرية ثنائية أو جماعية . أما المبدأ السادس من الإعلان فيقول : « بالإمتناع عن الالتجاء إلى التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأي من الدول الكبرى » . ومؤدى هذه العبارة هو خطر الدخول في الأحلاف العسكرية مع الدول الكبرى لا سيما إذا كانت الأحلاف لمصلحة الدول الكبرى أكثر مما هي لمصلحة الدول الصغرى . وفي هذا تأييد ضمني لسياسة عدم الإنحياز .

ومع ما في هذين المبدأين من تناقض فقد استراح إليهما المؤتمرون في باندونغ . وبالتالي فليس مبالغة أن نقرر أن مؤتمر باندونغ كان « أول ميدان لجدل دولي حول سياسة الإنحياز وسياسة عدم الإنحياز . ومن هنا كان ذلك مبرراً لمؤرخي سياسة عدم الإنحياز أن يجعلوا مؤتمر باندونغ البذرة التي أثمرت هذه السياسة بغض النظر عن أن فكرتها أقدم منه كما ألمحنا .

يرى الدكتور بطرس غالي أن مؤرخي سياسة عدم الإنحياز أهملوا كل الإهمال دور مؤتمر بريوني المنعقد في يوغوسلافيا في تموز ١٩٥٦ في تطوير هذه السياسة وبلورتها . وترجع أهمية هذا المؤتمر الذي ضم كلاً من الرئيسين الراحلين عبد الناصر ونهرو بالرئيس تيتو إلى عدة أمور يمكن إجمالها فيما يلي :

١ ـ إن اشتراك يوغوسلافيا في المؤتمر أكد أن سياسة عدم الإنحياز ليست قاصرة على الدول التي تخلصت من الإستعمار الغربي فحسب بل تشمل كذلك الدول التي استطاعت أن تفلت من التسلط السوڤياتي .

٢ ـ إن اشتراك يوغوسلافيا في المؤتمر أكد أن سياسة عدم الإنحياز يمكن أن تعتنقها أي دولة مهما كان نظامها السياسي والإقتصادي ومهما كانت الإيديولوجية التي تأخذ بها . فالدولة الشيوعية تستطيع أن تصبح غير منحازة كما تستطيع ذلك الدولة الرأسمالية .

٣ ـ إن اشتراك يوغوسلافيا مع مصر والهند في هذا المؤتمر أكّد أن سياسة عدم الإنحياز عالمية وليست قاصرة على قارة معينة وهو اتجاه تكرسٍ فيما بعد كما سنرى حيث تضم كتلة عدم الإنحياز الآن دولاً من كل القارات .

وقد جاءت قرارات مؤتمر بريوني مؤكدة لمبادىء باندونغ كما طالبت بحظر السلاح وحظر التجارب النووية ومنح المزيد من المعونات للدول النامية . وتعرضت القرارات أيضاً لمشاكل الشرق الأقصى فطالب الزعماء الثلاثة بقبول الصين في الأمم المتحدة ، وتعرضوا لمشاكل أوروبا ، واقترحوا توحيد ألمانيا وفق رغبات الشعب الألماني ، ثم تناولوا مشاكل الوطن العربي فطالبوا بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة الفلسطينيين إلى ديارهم ، كما أعلنوا استنكارهم للإستعمار الفرنسي في الجزائر وطالبوا بتطبيق حق تقرير المصير فيها .

منذ ظهور سياسة عدم الإنحياز اتخذت الكتلتان العملاقتان موقف المعارضة والإستنكار لها . فمثلاً نظرت واشنطن إلى رفض العديد من دول عدم الإنحياز الإشتراك في نظام الأحلاف السياسية ـ العسكرية الغربية على أنه ، على حد تعبير وزير الخارجية الأميركية السابق جون فوستر دالاس « ثغرة في نظام أمن الولايات المتحدة الجماعي » . أما سياسة عدم الإنحياز فوصفتها بأنها نهج « لا أخلاقي » على طريق التقارب مع الاتحاد السوفياتي . و « راحت دوائر وزارة

الخارجية الأميركية تتهم نهرو بالخروج عن ولائه للكومونولث والوقوع في أحابيل الشيوعية الدولية » .

واتخذ الإتحاد السوڤياتي ـ عبر صحافته ـ موقفاً مماثلاً في البداية فاتهم سياسة عدم الإنحياز بأنها تبعية جديدة للإستعمار ونعى على الرئيس اليوغوسلافي تيتو خروجه عن الأفكار الماركسية اللينينية وانتهاجه سياسة تمثل أكذوبة إستعمارية . وبعد أن أثبت نهرو وعبد الناصر وتيتو تمسكهم المبدئي بسياسة عدم الإنحياز بما يخدم مصالح الدول النامية في التحرر والسيادة غير الاتحاد السوڤياتي من نظرته لسياسة الحياد الإيجابي . فقد قال الرئيس جمال عبد الناصر في العام ١٩٥٨ « عندما جئت إلى الاتحاد السوڤياتي كان العالم على علم بأننا نتبع سياسة الحياد الإيجابي وعدم الإنحياز . ولقد وجدت لدى القادة السوڤياتيين والشعب السوڤياتي كل التفهم والإحترام والتأييد الشامل لسياسة عدم إنحيازنا » .

وانعكس تضامن البلاد السوڤياتية مع حركة عدم الإنحياز في الوثيقة الأساسية للحزب الشيوعي السوڤياتي والتي جاء فيها « أن الحزب الشيوعي السوڤياتي ينظر بتفهم إلى أهداف ونشاط حركة عدم الإنحياز ويعمل من أجل رفع دورها في السياسة العالمية . وسوف يقف الاتحاد السوڤياتي في المستقبل أيضاً إلى جانب دول عدم الإنحياز في النضال ضد قوى العدوان والهيمنة ومن أجل تذليل الخلافات والنزاعات الناشبة عن طريق المفاوضات ، وسوف يقف ضد جر هذه الدول إلى الأحلاف العسكرية السياسية » .

عملياً ترجم الاتحاد السوڤياتي موقفه الإيجابي فيما بعد لفكرة عدم الإنحياز بما قدمه لعدد من أعضاء الكتلة من مساعدات مادية ومعنوية عندما كانت تكافح الإستعمار التقليدي مثل تبني مشروع تكاليف بناء السد العالي في مصر .

وباختصار « إذا صح أن هناك توافقاً بين الكتلتين المتصارعتين فإنما هو الإتفاق على مناهضة سياسة عدم الإنحياز واستنكارها بل أن حدة الحرب الباردة كادت تجعل قيام سياسة عدم الإنحياز أمراً غير ممكن . فحين قال وزير الخارجية الأميركي دالاس في أحد تصريحاته أن لا حياء بين الحق والباطل لم يعبر عن موقف بلاده من سياسة عدم الإنحياز فحسب ولكنه كان يعبر عن موقف المعسكر الشيوعي أيضاً من هذه السياسة وإن كان كل منهما يعني بعبارة الحق والباطل عكس ما يعني الآخر » .

أمام هذا الضغط القوي الصادر معاً من الدولتين العظيمتين في العالم خشي البعض على سياسة الحياد الإيجابي من الزوال قبل أن تترسخ جذورها في واقع البلدان المؤيدة لهذه الفكرة . غير أن ذلك لم يحصل لأن هذه السياسة لم تكن وليدة مصادفة أو نتيجة ارتجال أو مجرد استغلال لوضع دولي معين ، بل كانت سياسة نابعة من رغبة أكيدة لدى الدول الحديثة الإستقلال في الإبتعاد عن الحرب الباردة الدائرة في العالم وفي أن يكون لها رأي مستقل وصوت مسموع في المحيط الدولي . وبهذا وحده سلمت فكرة عدم الإنحياز وأتيح لها أن تترعرع وتتطور وكان نموها يلازمه تغيير في سياسة

كل من موسكو وواشنطن تجاه تلك الفكرة .

ومن العوامل التي ساعدت على هذا التحول ما يلي :

١ ـ الوصول إلى نوع من توازن القوى بين العملاقين مما يبعد شبح الحرب ويؤدي إلى تجميد الحدود الفاصلة بينهما وقد خفف هذا الموقف من حملتهما على سياسة عدم الإنحياز .

٢ ـ بدأ كل من العملاقين بفتح عينيه على ما يمكن أن يفيده من سياسة عدم الإنحياز التي اعتنقتها الدول الأخرى فقد وجد السوفيات فيها ما يساعد الدول الآسيوية الأفريقية على الخلاص من الإستعمار الغربي وانتهاج سياسة حرة ، في حين وجد الأميركيون فيها ما يساعد هذه الدول على مكافحة الشيوعية أو عدم الإنزلاق نحو المعسكر السوفياتي . وعلى هذا وجدت كل من الدولتين لنفسها مصلحة في الكف عن مناهضة عدم الإنحياز .

٣ ـ تبين لموسكو وواشنطن معاً أن دول عدم الإنحياز يمكن أن تلعب دور الوسيط في بعض الخلافات التي قد تنهض بينهما . فالدور الذي لعبه نهرو الحيادي في إنهاء الحرب الكورية وفي عقد اتفاقات جنيف الخاصة بالهند الصينية يدل على أن سياسة عدم الإنحياز ليست تلك السياسة السلبية وليست مجرد حياد بين الحق والباطل بل تتجاوز ذلك للوقوف إلى جانب الحق كما تراه الدول المحايدة وليس كما تراه الدول الكبرى .

وهكذا يمكن القول إن قوة وهيبة حركة عدم الإنحياز تنبعان من كونها ظهرت كتجل لإرادة الدول الفتية وتطلعها إلى النضال من أجل السلام وإلى تدعيم إستقلالها السياسي وتحقيق إستقلالها الإقتصادي وإسهامها المتكافىء في حل القضايا العالمية . ولهذا فبعد أن كان عدد المساهمين في حركة عدم الإنحياز لا يتجاوز بضع دول في مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ أخذ يزداد حتى صار في إمكان هذا العدد الجديد أن يعقد مؤتمر دولياً تحدد فيه معالم هذه السياسة الجديدة . وكان مؤتمر بلغراد لعام ١٩٦١ أول مؤتمر رسمي متكامل للنظرية الجديدة . وكان نهرو وعبد الناصر والماريشال تيتو من عرابي هذا المؤتمر . يومها تناول نهرو بالنقد مفهوم (البعد المتساوي) بين الجبارين . وعدم الإنحياز كما وصفه جواهر لال نهرو لا يعني أن على البلدان غير المنحازة أن تقف على (مسافة متساوية) من النظاميين السياسيين العسكريين المتواجهين . إنه يعني في رأي نهرو رفض الإنحياز إلى الأحلاف أي إلى سياسة الأحلاف ، أي السياسة التي تعرض مصالح البلدان المتحررة للخطر . وكان غاندي قد سبقه إلى ذلك وعندما أشار أن تصور عدم الإنحياز كمجرد سياسة سلبية تهدف إلى « البعد المتساوي عن الدول العظمى » هو تصور خاطيء .

ولدى الحديث عن تناقضات بين زعماء حركة عدم الإنحياز حول هذه الفكرة لكن ينبغي أن نذكر دائماً أن آراء أعضاء الحركة إزاء المسائل الأساسية ، مسائل صيانة السلام

ودرء الحرب النووية وإقامة نظام إقتصادي دولي جديد ونيل الإستقلال الحقيقي كان هذا جوهر حركة عدم الإنحياز والشيء الرئيسي في نشاطها .

مبادىء عدم الإنحياز:

هناك إجماع بين الباحثين المهتمين بكتلة الإنحياز بأن المؤتمر التحضيري لقمة بلغراد الذي انعقد بمدينة القاهرة في الفترة بين ٥ و١٢ حزيران ١٩٦١ وضع أول تعريف قانوني لمفهوم سياسة عدم الإنحياز إذ قرر أن الدولة التي تؤمن بتلك السياسة يجب أن تتبع المبادىء الخمسة التالية :

١ ـ يجب أن تنتهج سياسة مستقلة قائمة على تعايش الدول ذات النظم السياسية والإجتماعية المختلفة وعلى عدم الإنحياز أو أن تظهر إتجاهاً يؤيد هذه السياسة .

٢ ـ يجب أن تؤيد الدول غير المنحازة حركات الإستقلال القومي . وقد كان هذا المبدأ عند وضعه في مطلع الستينات مبدأ أساسياً إذ يتطلب من الدول اللامنحازة في الصراع القائم بين المعسكرين العملاقين أن تخرج عن حيادها أو عدم إنحيازها وأن تنحاز في الصراع القائم بين المستعمرين والأقاليم المكافحة من أجل حريتها إلى جانب هذه الأخيرة . بل لعل في هذا المبدأ ما يبين الفرق بين الحياد الإيجابي (عدم الإنحياز) والحياد الدائم (القانوني) كحياد سويسرا والنمسا . فالحياد الدائم واجب الممارسة في جميع النزاعات المسلحة بما فيها حروب التحرير لذا فهو في نظر اللامنحازين

حياد سلبي أما الحياد الإيجابي فلا يسرى في حالات حروب التحرير بل إنه يحتم على معتنقيه النضال فيها ضد الإستعمار .

٣ ـ يجب أن لا تكون الدول عضواً في حلف عسكري جماعي ثم في الصراع بين الدول الكبرى . وهذا المبدأ ما زال أساسياً وهاماً لأن عدم الإنحياز كفلسفة سياسية ما قامت إلاَّ كردة فعل مباشر لوقوع العالم في حماة الحرب الباردة بين الجباريين عبر أحلافهما المتضادة . وعلى هذا الأساس فإن الدولة لا تكون غير منحازة إذا انخرطت في حلف من هذه الأحلاف مثل حلف الأطلسي وحلف المعاهدة المركزية وحلف جنوب شرق آسيا أو حلف وارسو .

٤ ـ يجب أن لا تكون الدولة طرفاً في اتفاقية ثنائية مع دولة كبرى .

٥ ـ يجب أن لا تكون الدولة قد سمحت لدولة أجنبية بإقامة قواعد عسكرية في إقليمها بمحض إرادتها .

في مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الذي عقد في بلغراد في أيلول ١٩٦١ ثارت تساؤلات عدة حول مفهوم الإنحياز من هذه التساؤلات على سبيل المثال .

هل رسالة عدم الإنحياز تتركز أساساً في محاولة حل النزاع بين الغرب والشرق أم أنها تنصرف إلى الدفاع عن استقلال الدول المؤمنة بالمبدأ وحسب ؟ هل تنصرف سياسة عدم الإنحياز للدفاع عن المجتمع الدولي ككل ؟ وأخيراً هل

رسالة عدم الإنحياز في حاجة لإقامة تنظيم دولي لتدعيمها أم أن إقامة مثل هذا التنظيم سيكون مناهضاً لسياسة عدم الإنحياز ؟ .

أما بخصوص التساؤل الأول فقد كان التيار الغالب في المؤتمر هو أن التوسط في حل النزاع بين الغرب والشرق كان يدخل في صميم رسالة عدم الإنحياز على أساس أن الحرب إذا وقعت بين المعسكرين المتصارعين فإنها ستضعف معها بجميع المفاهيم الأخرى التي تكافح من أجلها الدول اللامنحازة .

وأما عن التساؤل الثاني فقد كان من رأي عدد من الدول الثورية آنذاك في آسيا وأفريقيا أن سياسة عدم الإنحياز ترمي إلى تغيير العلاقات الدولية تغييراً كاملاً وبناء مجتمع دولي جديد يقوم على مفاهيم سياسية وأخلاقية تختلف في مضمونها عن تلك التي كانت تقوم عليها العلاقات الدولية خلال فترة السيطرة الأوروبية وبالتالي فإن سياسة عدم الإنحياز يجب أن تخرج من نطاقها الإقليمي المحدود بقارتي آسيا وأفريقيا بالدرجة الأولى إلى سياسة عالمية إيجابية بناءه . في حين اعترض فريق آخر على هذا الإتجاه باعتبار أن القوة الحقيقية في المجتمع الدولي لم تكن في يد دول عدم الإنحياز ، وإنما هي في يد العملاقين الكبيرين وحدهما وبالتالي فإن سياسة عدم الإنحياز لا ينبغي تحميلها أكثر مما تقدر عليه لأن قوتها معنوية وأخلاقية أكثر مما هي مادية . وقد أخذ مؤتمر بلغراد

برأي وسط إذ اعترف بأن السلام العالمي يقوم قبل كل شيء على العلاقات بين الدول الكبرى وإن أكد ما لسياسة عدم الإنحياز من دور فعال في توطيد دعائم السلم العالمي .

أما فيما يتعلق بالتساؤل الثالث حول ما إذا كان من المستحسن إقامة تنظيم يضم دول عدم الإنحياز بدل بقائها مبعثرة الجهود فقد رفضت أغلبية الدول رأي يوغوسلافيا بإنشاء منظمة دولية تقوم على سياسة عدم الإنحياز وتمسكت بأن من خصائص المبدأ عدم الإرتباط بالتكتلات . فإذا هي أقامت تكتلاً خاص بها فإنما تكون قد وقعت في تناقض نفسها . وقد سجل المؤتمر في قراراته عدم الأخذ بإنشاء تكتل منظم بين دوله .

حركة عدم الإنحياز ومراحل النضال:

طرحت بلدان عدم الإنحياز عدداً كاملاً من المقترحات التي ستتمحور حولها نضالات هذه البلدان وهي :

١ ـ النضال من أجل السلام ونزع السلاح : فقد تبنى المؤتمر الأول لرؤساء دول وحكومات البلدان غير المنحازة الذي عقد في بلغراد في أيلول ١٩٦١ مبادرة نهرو حول تحقيق عالم خال من العنف ومن السلاح النووي حتى العام ٢٠١٠ م . وجاء في ختام المؤتمر حول هذا الموضوع : « أن الوضع المتأزم الخطير في ظروف التوتر القائم في العالم ينطوي ، أكثر منه في أي وقت مضى ، على احتمال نشوب نزاع يؤدي لا محالة إلى حرب عالمية » . وأعلن المؤتمرون

كذلك أن هذه الكارثة لا بد من تفاديها . وسعياً لهذا الهدف أعلنوا أن نزع السلاح هو ضرورة ملحة ويعتبر أول مهمة تقوم أمام البشرية ، وناشدوا جميع الدول استخدام الفضاء الكوني للأغراض السلمية فقط ، ودعوا إلى عقد اتفاقية على الفور حول حظر جميع التجارب النووية .

ومنذ ذلك الحين أضحت الدعوة إلى توطيد السلام والأمن الدولي وتخفيف خطر الحرب محور جميع البيانات والنضالات السياسية للبلدان أعضاء حركة عدم الإنحياز .

٢ ـ النضال ضد الإستعمار والعنصرية والفصل العنصري : كان محور سياسة عدم الإنحياز ضد الإستعمار الجديد والفصل العنصري والعنصرية ، بما فيها الصهيونية ، وضد جميع أشكال العدوان الأجنبي والاحتلال والسيطرة والتدخل والهيمنة وكان المؤتمر الأول للبلدان غير المنحازة في بلغراد قد أعلن « أن السلام الدائم لا يمكن له أن يستتب إلا في حالة تصفية الإستعمار القديم والإستعمار الجديد في مظاهره كافة » .

وتعزو حركة عدم الإنحياز ظواهر الجور والإستغلال التي أوجدها الإستعمار إلى أبرز أسباب « التوتر والنزعات والعنف في العالم » .

وقد أيدت بلدان عدم الإنحياز دائماً وبحزم نضال العرب وخاصة الفلسطينيين ضد المحتلين الإسرائيليين . وترى أن ضرورة حل القضية الفلسطينية حلاً بناءً كشرط لا بد منه

لتسوية مشكلة الشرق الأوسط تسوية عادلة وكما وقفت هذه البلدان ضد ممارسات الفصل العنصري في جنوبي أفريقيا وضد سياسة الإمبريالية في أميركا الوسطى والحوض الكاريبي .

٣ ـ النضال من أجل التنمية الإقتصادية وتغيير العلاقات الإقتصادية الدولية : كان المؤتمر الأول لرؤساء دول وحكومات بلدان عدم الإنحياز الذي انعقد عام ١٩٦١ قد رسم للحركة الهدف التالي : « بذل الجهود لإنهاء اللامساواة الإقتصادية التي خلفها الإستعمار وعمقتها الإمبريالية ، وتقليل الفارق القائم بين مستوى حياة مجموعة من البلدان العالية التطور وبين العديد من البلدان النامية ، وإقامة علاقات عادلة في ميدان التجارة مع البلدان النامية » . ومنذ ذلك الحين ، أصبح النضال من أجل إقامة العلاقات الإقتصادية الدولية على أسس عادلة متكافئة أحد الإتجاهات الرئيسية لنشاط حركة عدم الإنحياز .

عملياً أسهمت حركة عدم الإنحياز ، الذي قادها نهرو ، عبد الناصر وتيتو ، في صورة مهمة جداً في القضاء على الإستعمار في قسم كبير من القارة الإفريقية . وقد ارتدت أهمية بالغة قرارات مؤتمر بلغراد التي تؤيد بيان منح الإستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة الذي أقرته الدورة ألـ ١٥ للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ . كما تؤكد الحقائق المشار إليها أن حركة عدم الإنحياز اتخذت في أثناء عملية

تشكلها وتطورها مواقف أكثر فعالية إزاء قضايا النضال ضد الإستعمار بشكلية القديم والحديث وضد العنصرية . وهذا ما تجلى بوضوح في موقفها من حل قضية الشرق الأوسط وجنوبي أفريقيا .

إن حركة عدم الإنحياز هي أحد المظاهر الساطعة لطموح شعوب آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية العاطف إلى التعبير الحر عن إرادتها والتخلص من كل أشكال الإستعمار . وفي هذا تكمن الأهمية التاريخية العظيمة لحركة عدم الإنحياز ولشخصية نهرو الذي يعود إليه الفضل كونه أول من بادر إلى طرح هذه الفكرة . وبذلك أصبح محط أنظار كل زعماء الدول الطواقين إلى الإستقلال . فقد قال فيه ، رئيس جمهورية غانا آنذاك الرئيس نكروما ، في أثناء استقبال أعده له نهرو : « على الرغم من أنني لم أقم بزيارة الهند من قبل ، إلا إنني كنت دائماً أعرف كل شيء عنها . ولقد تأثرت أشد التأثر بآراء ذلك الرجل العظيم المهاتما غاندي ، وبالأمثلة الإنسانية الرفيعة التي تضربها أنت » .

مصادر البحث

- إسماعيل صبري مقلد: التكتلات الدولية والإقليمية ودول عدم الإنحياز. في الدورة الدبلوماسية الثقافية لوزارة خارجية الكويت ١٩٧١ .
- إسماعير صبري مقلد: السياسة السوڤياتية والدول الأفرواسيوية. مجلة السياسة الدولية . مؤسسة الأهرام القاهرة تشرين الأول ١٩٦٥ .
- بطرس غالي: ابعاد الإيديولوجية الأفرواسيوية . مجلة السياسة الدولية ـ مؤسسة الأهرام القاهرة نيسان ١٩٦٨ .
- بطرس غالي: سياسة الإنحياز بعد التصالح الأميركي السوڤياتي مجلة السياسة الدولية العدد ٣١ كانون الثاني ١٩٧٣ .
- حنا أبي راشد: تاريخ نهضة مصر الحديثة ١٨٠١ ـ ١٩٦٠ دار الفكر العربي بيروت ١٩٦٠ .
- رينه ريمون: مدخل إلى التاريخ المعاصر ـ القرن العشرون من ١٩١٤ إلى أيامنا الحاضرة . ترجمة د. علي

نعمة مراجعة د. علي المقلد . دار المنشورات العربية ١٩٨٥ .
- إحسان حقي: تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية . مؤسسة الرسالة ١٩٧٨ .
- قدري قلعجي: غاندي أبو الهند . دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٨ .
- لويس رينو: آداب الهند ترجمة هنري زغيب منشورات عويدات ١٩٨٩ .
- نجاني محمد أمين البخاري: الإشتراكية بين غاندي ونهرو - دار الطباعة والنشر - عمان - الأردن .
- جواهر لآل نهرو: لمحات من تاريخ العالم - الطبعة الثانية - منشورات المكتب التجاري - ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين . ١٩٥٧ .
- شخصيات عبرت التاريخ : هدية مجلة المختار كانون الأول ١٩٦٦ .
- مجلة الطريق الإشتراكية - موسكو كانون الأول ١٩٨٩ عدد ١٢ .
- محمد عزيز شكري: الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية سلسلة عالم المعرفة - الكويت - تموز ١٩٧٨ .
- محمد حسنين هيكل: حرب الخليج أوهام القوة والنصر . السفير ٢٢/٤/٩٩٢ .

ـ أ . ريــز نيكــوف: الكــوفتــرن والشــرق الستــراتيجي والتــاكتيكات تــرجمة سعيـد الكـاضمي . مـركـز الأبحـاث والـدراسـات الإشتـراكيــة في العـالم العربي . ١٩٨٧ .

- Enaycl opedia universalis volume 14 (P 310) V.15 P(546).
- Independance and, a collectoin of the more important speechs of Jawachorlal Nehro from sept. 1946 May 1949.

فهرس البحث

سلسلة أحداث ومشاهير عالمية

تتناول هذه السلسلة سير شخصيات عالمية ، من علماء وقادة ، اقترنت أسماؤها بأحداث هامة كان لها أكبر الأثر في مجرى تاريخ البشرية على مرّ العصور .

- حمورابي
- أخناتـون
- الإسكندر المقدوني
- هنيبعـل
- يوليوس قيصر
- هـرَقل
- بطرس الأكبر (قيصر روسيا)
- نابوليون بونابرت
- بسمارك
- غاريبلدي
- كريستوف كولومبوس
- ابراهام لنكولن
- جورج واشنطن
- هتـلر
- تشـرشـل
- موسوليني
- رومـل
- مونتغمري
- ألفرد نوبل
- إديسون
- غـانـدي
- جواهر لال نهرو
- شارل ديغول
- أتاتورك

دار
الفكر اللبناني